

جماعت الکتاب

النفس

معالم حیاتیۃ - منجیہ الیوم

أَمِينُ الْخَوَافِ

obeikandi.com

obeikandi.com



التفسير

١ - تلتقي مادتا - ف س ر ، س ف ر - في معنى الكشف ؛ ثم نرى السفر الكشف المادى والظاهر ؛ والفسر الكشف المعنوى والباطن . والتفصيل منه - التفسير - كشف المعنى وإبانه .

ويقدر الأقدمون أن مثل هذه المعارف ، في اللغة والتفسير والحديث ، ليست علوماً بالمعنى المعروف في العلوم العقلية ؛ فيرى بعضهم ألا يتكلف للتفسير حداً ولا بيان موضوع ومسائل ، لأنه ليس قواعد وملكات ناشئة عن مزاوله القواعد ، كغيره من العلوم التي استطاعت أن تشبه العلوم العقلية ؛ فيكتفي في إيضاح التفسير بأنه : بيان كلام الله ؛ أو أنه المبين لألفاظ القرآن ومفهوماتها (١) . . . ومنهم من يتكلف له التعريف فيذكر في ذلك ، ما يشمل غير التفسير من العلوم ؛ كعلم القراءات ؛ كما يشمل أقداراً من علوم أخرى يحتاج إليها في فهم القرآن ، كاللغة ، والصرف ، والنحو ، والبيان . . . والمسلك الأول أسلم ، وأبعد عن الإطالة بما ليس وراءه كبير جدوى . والتفسير أحد العلوم - أو الدراسات الشرعية - التي حاول الأولون ضبطها باعتبار ما كمادتهم ، فقالوا : إنها إمامدونة لبيان لفظ القرآن ؛ وهو علم القراءة . وإما مدونة لبيان السنة النبوية لفظاً وإسناداً ، وهو علم الحديث ، وعلم أصوله وإما مدونة لإظهار ما قصد بالقرآن وهو التفسير . . . إلى آخر ما يسوقونه من بيان هذا الاعتبار الضابط لأنواع العلوم الشرعية (٢)

ويعرضون في هذا المقام لذكر التأويل ، وأنه هو والتفسير من جنس واحد ، أو أن



(١) المبادئ النصرية طبعة الخيرية سنة ١٣٢٠ هـ ص ٥

(٢) الدر النضيد من مجموعة الحفيد لشيخ الاسلام أحمد بن حنبل

التفسير أعم من التأويل ؛ أو غير ذلك مما لا نطيل القول فيه . . . وأحسب أن منشا هذا كله هو استعمال القرآن لكلمة التأويل . ثم ذهب الأصوليين إلى اصطلاح خاص فيها ، مع شيوع الكلمة على السنة المتكلمين من أصحاب المقالات والمذاهب . . . ولعل من خير ما يحرر به معنى كلمة « تأويل » ما ذكره الراغب الإصفهاني مرويأ عن ابن عباس في رسالته « مقدمة التفسير » التي طبعت ملحقه بكتاب تنزيه القرآن عن المطاعن (٢) ؛ ثم تولى ابن تيمية تفصيل هذا الموضع وإيضاحه في رسالته « الإكليل في المتشابه والتأويل » (٣) وإن كنت لم أره يشير إلى ما ساقه الراغب الإصفهاني من معاني التأويل ، مع أنه أصل فكرته ولها .

ب - نشأته

يرى ابن خلدون أول كلامه عن التفسير في المقدمة ، « أن القرآن أنزل بلغة العرب ، وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه . ويعتبرون معانيه في مفرداته وتراكيبه والقول بأنهم كلهم يفهمونه فيه تعميم واسع ، لم يطمئن إليه الاقدمون أنفسهم ، فهذا ابن قتيبة ، قبل ابن خلدون بيضعة من القرون ، يقول في رسالته المسائل والأجوبة (ص ٨) إن العرب لا تستوى في المعرفة بجميع ما في القرآن ، من الغريب والمتشابه ، بل إن بعضها يفضل في ذلك على بعض » . وأحسب ابن خلدون قد شعر بذلك فيما أورده بعد عباوته السابقة بأسطر ، فقد ذكر أن في القرآن نواحي للحاجة إلى البيان ، وقال : كان النبي - ص - يبين المجمل ، ويميز الناسخ من المنسوخ . ويعرفه أصحابه فعرفوه ، وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولا عنه . . . وذلك

(٢) رسالة الراغب المصنوعة الإزهرية سنة ١٣٢٩ ص ٤٢ .

(٣) هذه الرسالة مطبوعة ضمن الجزء الثاني من مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية

المطبعة الشرقية سنة ١٣٢٣ .

الأمور وغيرها من مواضع الحاجة إلى الإبانة ، قد أحوجت منذ أول العهد الإسلامي إلى بيان القرآن وتفسيره .

ولعل الروعة الدينية لهذا العهد ، والمستوى العقلي لأهله ، وتحدد حاجات حياتهم العملية ، ثم شعورهم مع هذا ، بأن التفسير شهادة على الله بأنه عني باللفظ هذا ، كل أولئك جعلهم لا يقولون في تفسير القرآن إلا التوقيفي الذي نقل إليهم ، وروى عن صاحب الرسالة عليه السلام ، فكان أول ما ظهر من التفسير : تفسير الرواية ، أو التفسير الاثرى . وكان رجال الحديث والرواية ، هم أصحاب الشأن الأول في هذا فرأينا أصحاب مبادئ العلوم ، حين ينسبون — على عاداتهم — وضع كل علم لشخص معينه ، يعدون واضع التفسير — بمعنى جامعه لا مدونه — الامام مالك ابن أنس (١) الأصبحي إمام دار الهجرة .

وهكذا تتصل نشأة التفسير ، بتاريخ تدوين الحديث ، وقد كان الامام مالك رضى الله عنه ، من قدماء المدونين في الحديث ، ولو أن كتابه « الموطأ » لا يشمل — فيما رأيت — على الكثير من تفسير القرآن ، وفي كل حال قد حملت المجموعات الحديثية ، مقادير مختلفة من هذا التفسير ، حتى لئرى في صحيح البخارى ، كتابين هما : كتاب تفسير القرآن ، وكتاب فضائل القرآن يشغلان حيزاً واضحاً من الكتاب ، ربما كان نحو الثمن منه .

ولعل هذا المعنى من صلة التفسير بالحديث ، هو الذى يفهم به قول الأستاذ كارادى فو كاتب مادة التفسير فى دائرة المعارف الاسلامية « أنه فرع خاص هام من علم الحديث ، يعلم فى المدارس والجامعات » . . . وإلا فان ما استقر عليه الأمر أخيراً مكان التفسير بين العلوم الشرعية هو ما سقناه آنفاً مبنياً بالاعتبار الذى لاحظوه فى تنضيد هذه العلوم ، ولا يظهر فيه التفسير فرعاً خاصاً من علم الحديث . ولو لاحظنا

أن التفسير فيما بعد ، لم يقف عند الرواية ، وأن القول في التفسير غير النقل ، قد اتسع واستأثر بجهد العلماء وعنايتهم ؛ لولا حظنا هذا لوجدنا أن عد التفسير من فروع الحديث لا يظهر له وجه إلا ما أشرنا إليه من هذه النشأة ، واتصاله فيها بالرواة والمحدثين ؟ !

اشتهر برواية التفسير نفر من الصحابة رضى الله عنهم ، ويجتمع من هذه الرواية تفسير منسوب لابن عباس — رضى — هو الذى طبع باسم : تنوير المقياس من تفسير ابن عباس ، للفيروز آبادى صاحب القاموس المحيط ، وحسبنا فى التعقيب على هذا ما يروى منسوبا إلى الإمام الشافعى — رضى — من قوله : لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شيه بمائة حديث ، (١) مع أن هذا التنوير المنسوب إليه مطبوع فى نحو أربع مائة صفحة من القطع العادى .

وأكثر ناس من التابعين رواية التفسير ؛ وتردد ذكر أسماء منهم ، كانت أحكام نقاد الرواية من القدامى عليهم ليست بذلك ، فالضحاك بن مزاحم الهلالى المتوفى عام ١٠٢ أو ١٠٥ هـ — وإن وثقه نفر ، قد قالوا إنه روى عن ابن عباس ، ولم يلقه فطريقه عنه منقطعة ؛ وقالوا : فى جميع ما روى نظر ، إنما اشتهر بالتفسير (٢) . . . من هذه العبارة الأخيرة ، إنما اشتهر بالتفسير ، ما يدل على درجة تقديرهم لرواية التفسير ؛ وعطية بن سعد العوفى المتوفى عام ١١١ — الذى يروى عن ابن عباس ، قد ضعفوه (٣) . وإسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير ، وإن وجد من قبله ، قد قالوا إنه ضعيف وكذاب شتام (٤) ، والتفسير الذى جمعه قد رواه أسباط بن نصر .

(١) شذرات الذهب لابن العماد ج ١ ؛ وخلاصة تذهيب الكمال فى أسماء الرجال ص ١٥٠

طبعة الحيرية سنة ١٣٢٣ هـ ، والاتقان ج ٢ ، ص ٢٢٤

(٢) الاتقان : الموضع السابق ، والتذهيب ص ١٣٦ والشذرات ج ١ ،

(٣) التذهيب وهامشه ص ٣٠ .

(٤) الاتقان الموضع السابق ، والتذهيب ص ٢٢

وأسباط هذا لم يتفقوا عليه ، وقال النسائي ليس بالقوى (٤) . . . ومحمد بن السائب الكلبى المتوفى عام ١٤٦ هـ — وهو أحد الطرق عن ابن عباس ، مشهور بالتفسير ، وليس لأحد تفسير أطول منه ولا أشبع ، ومع ذلك فإن وجد من قال : رضوه فى التفسير ، فقد وجد من قال : أجمعوا على ترك حديثه ، وليس بثقة ولا يكتب حديثه ، واتهمه جماعة بالوضع (٥) . . . ومحمد بن مروان السدى الصغير ، الذى يروى عن ابن الكلبى السابق ، قالوا : إنه يضع الحديث ، وذهب الحديث متروك . وإذا كانت رواية هذا السدى الصغير عن الكلبى عن أنى صالح عن ابن عباس فهى سلسلة الكذب (٦) . ثم مقاتل بن سليمان الأزدي الخراسانى المتوفى عام ١٥٠ — وهو المفسر الذى قالوا إن الناس عيال عليه فى التفسير ، وتنسب هذه الكلمة عنه إلى الشافعى نفسه ، ومع ذلك نراهم يقولون : إنه يروى عن مجاهد ولم يسمع منه شيئا ، ويروى عن الضحاك ، ولم يسمع منه شيئا ، فقد مات الضحاك قبل أن يولد مقاتل بأربع سنين ويكذبونه ، ويضعفه من يستحسن تفسيره ، ويقول ما أحسن تفسيره لو كان ثقة ، وينقلون أنه كان يأخذ عن اليهود علم الكتاب (٧) . وأخيرا هذا أبو خالد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، وهو من أوائل من دونوا الحديث قد رويت عنه أجزاء كبار فى التفسير ، ومع ذلك لاحظ النقاد أن ابن جريج فى التفسير لم يقصد الصحة . وإنما روى ما ذكر فى كل آية من الصحيح والسقيم .

وهكذا نجد غير قليل من النقد التفصيلى لرواة التفسير النقلى ، كما نجد النقد الإجمالى لهذه المرويات فالإمام أحمد بن حنبل ، له الكلمة المعروفة ، ثلاثة ليس لها

(١) الاتقان الموضع السابق — والتذهيب وهامشه ص ٢٧٨

(٢) التذهيب ص ٣٠٦ — والاتقان فى الموضع السابق .

(٣) الاتقان : الموضع السابق — والتذهيب وهامشه ص ٣٣١

(٤) الاتقان : الموضع السابق .

اصل : التفسير والملاحم والمغازى ، أى ليس لها إسناد لأن الغالب عليها المراسيل (١) ويقول ابن تيمية بعد ذكر وضع الحديث والأدلة القاطعة على كذبه ، وفى التفسير من هذه الموضوعات قطعة كبيرة ، كما يقول ، والموضوعات فى كتب التفسير كثيرة ، (٢) .. وهكذا لم يعتمد النقل التفسيرى على أساس من الثقة وطيد . كما سمعت من النقاد الأقدمين منذ الدهر الأول .. فإذا تساءل النقاد المحدثون عن قيمة الأحاديث الواردة فى هذه الكتب الجامعة ولم يصلوا بعد إلى رأى يعززها كثيراً كما يقول كارادى فو ، فإن هؤلاء النقاد المحدثين لم يجيشوا بجديد فى هذا على ما ترى !! إذ أن الاتهام قديم !! وقد كان من وراء ذلك أن تأثرت تلك المنقولات بكل ما فى البيئة الإسلامية من متناقل القصص الدينى ، مجحولا إليها من مختلف الأنحاء . فقد كان اليهود فى ماضيهم الطويل قد شرفوا راحلين من مصر ومعهم من آثار حياتهم فيها ما معهم ، ثم أبعدها مشرقين إلى بابل فى أسرهم ، ثم عادوا إلى موطنهم وقد حملوا من أقصى المشرق فى بابل ، وبعيد الغرب فى مصر ما حملوا . وجاء البيئة العربية الإسلامية من كل هذا المزيج ما جاء إلى جانب ما بعثت إليه الديانات الأخرى التى دخلت تلك الجزيرة ، وألقت إلى أهلها ما ألقت من خبر أو قصص دينى ، وكل أولئك قد تردد على آذان قارئى القرآن ومتفهميه ، قبلما خرجوا إلى ما حول جزيرتهم شرقاً وغرباً فاتحين ، ثم ملأ آذانهم حين خالصوا أصحاب تلك البلاد التى نزلوها وعاشوا بها وإن كان الذى اشتهر من ذلك هو اليهودى ، لكثرة أهله ، وظهور أمرهم فدعيت تلك التزيينات التى اتصلت بمرويات التفسير النقلى باسم « الإسرائيليات » .

وإن خلدون فى مقدمته يذكر من أسباب الاستكثار من هذه المرويات ، اعتبارات اجتماعية ، ودينية أغرت المسلمين بهذا الأخذ والنقل ، الذى اتسعت له

(١) ابن تيمية — مقدمة فى أصول التفسير ص ١٤ ط دمشق .

(٢) المصدر السابق ص ١٩

كتب التفسير المروى فاشتملت على الغث والسمين ، والمقبول والمردود ؛ فيعد ابن خلدون من الاعتبارات الاجتماعية ، غلبة البداوة والأمية على العرب وتشوقهم لمعرفة ما تشوق اليه النفوس البشرية . في أسباب المكونات ، وبداء الخليقة ، وأسرار الوجود ؛ وهم إنما يسألون في ذلك أهل الكتاب قبلهم . ثم يذكر من الاعتبارات الدينية التي سوغت عنده هذا التلقي الكثير لمثل تلك المرويات في تساهل ، وعدم تحرر للصحة ، أن مثل هذه المنقولات ، ليست مما يرجع إلى الأحكام ، فيتجرى فيها الصحة التي يجب بها العمل ، فتساهل المفسرون في مثل ذلك ، ومثلوا كتبهم بمنقولات عن عامة أهل التوراة الذين كانوا بين العرب ، وكانوا بداءة مثلهم ، لا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ؛ ولا تعلق لها بالأحكام الشرعية التي يحتاط لها (١)

وسواء أكانت هذه هي كل ما هيأ لذلك من الأسباب ، أو كان ورامها أسباب أخرى . في حياة الرواية ، وحياة العقيدة ، وضرورة تأثرها بما حولها ، فقد اتسعت على كل حال نقول التفسير ، لمثل هذه المرويات التي يبين البحث أنها شملت مزيجاً متنوعاً من مخلفات الأديان المختلفة ، التي ترامت إلى علم العرب .

وما بنا بعد الذي عرف من تنبه الأقدمين إليها أن نبين كيف تترك أو يتقى أثرها ، فقد تصدوا لهذا وتحدث عنه غير واحد من المفسرين ؛ وإن كان الذي سلم من التأثير به فيهم قليل أو نادر .

وقد تداعى أشياخ الأزهري اليوم إلى تجريد كتب التفسير من هذه الاسرائ依ليات وهو أمر يسير الخطر ولعل الأجدى من هذا التجريد أن تنقد هذه المجموعة المركومة من التفسير النقلي ، على هدى قواعد القوم في نقد الرواية متناً وسنداً ، ليستبعد منها هذا الكثير الذي لا يستحق البقاء ، ويستريح الناظرون في الكتاب الكريم من الاتصال به ؛ إذا ما حاولوا تفهم آية ؛ فلا يقفون عند شيء لا أساس له .

وأما هذه الإسرائيليات، كما سموها، فعلى الأشياخ أمامها واجب في تاريخ آخر
الأديان وتحقيق صلاتها؛ وهو واجب لا ينبغي أن يقوم به أحد قبلهم، ذلك هو جمع
هذه القصص، ودرسها مردودة إلى أصولها، مبينة مصادرها ليدل ذلك على مسالك
التأثر والتأثير بين الأديان، ومداخل اتصالها.

ونعود إلى مانحن بصدده هنا أولاً؛ وهو التفسير النقلي، الذي كان أول أصناف
التفسير نشأة، فتد جعلت تتناقله الطبقات شفاهاً، ثم تدوينا تدريجياً، حتى أفردت له
المؤلفات الخاصة؛ واستمر ذلك، إلى أن تغيرت موجهات الحياة، وظهر تفسير جانب
العقل فيه أثر من جانب النقل، عني المؤلفون به، وإن بقي في كتبهم أثر من الروايات
المنقولة، يرجعون بين الفينة والفينة، حتى فترت العناية عن أفراد التفسير المأثور
بالتأليف المستقل.

ونكتفي بأن نشير هنا إلى ثلاثة من كتب تفسير الرواية، أحدها شرقى، والثاني
غربي، والثالث مصري، فأما الشرقى، فهو كتاب «جامع البيان في تفسير القرآن»
لابن جرير الطبري المحدث المؤرخ الفقيه في - في ثلاثين مجلداً، وهو مطبوع...
ويقول كآرادى فر، في مادة تفسير بالدائرة؛ ويشمل تنسيقه (ابن جرير) المطول
كثيراً من الأحاديث المسندة الصحيحة... وأكبر الظن أن هذا الحكم لا يقوم
على فحص خاص؛ فإن جرير رحمه الله، لم يسلم من الرواية عن أولئك الذين قدمنا آراء
نقاد الرجال فيهم؛ وقد لوحظ عليه مثلاً، أنه يورد الكثير من طريق السدى، وهو
ما لم يورد منه ابن أبي حاتم شيئاً، حين التزم أن يخرج منه أصح ماورد (١) ولعل

(١) الاتقان ٢ : ٢٢٤ وفي هذا الموضع من الاتقان أشرت لمواضع من الضعف في مرويات
ابن جرير التفسيرية منها قوله : وطريق الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس منقطعة فان انضم إلى
ذلك رواية بشر بن عمار عن أبي روق عنه فضيفة بضعف بشر... وقد أخرج من هذه النسخة
كثيراً ابن جرير وابن أبي حاتم وأقول أنه ذكره إخراج ابن أبي حاتم عن هذه الطريق الضعيفة
يتعارض مع ما سقناه من قوله قبل ذلك في س ٢ من هذا المقال وهو : ان ابن حاتم التزم أن يخرج
منه أصح ما ورد

تفسير ابن جرير محتاج إلى النقد الفاحص ، احتياج غيره من تلك المرويات التفسيرية على ما قدمنا

وشخصية ابن جرير الأدبية والعلمية تجعل كتابه مرجعاً غير قليل الأهمية ، في فالصنف الثاني من التفسير ، أى تفسير الدراية ، فترجيحاته للمعاني المختلفة تقوم على نظرات أدبية ولغوية وعلمية قيمة . . فوق ما جمع كتابه من روايات أثرية . . .

وأما الكتاب الغربى ، فهو الكتاب الذى عرف باسم المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ، لأبى محمد بن عبد الحق بن أبى بكر غالب بن عطية الفرناطلى الأندلسى — ت ٥٤١ هـ — الذى يتول عنه ابن خلدون فى المقدمة ، إنه لخص فيه كتب التفسير كلها — أى تفاسير المنقول — وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة فيها ، ووضع ذلك فى كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس ، حسن المنهج ، وهو مخطوط ، منه بضعة أجزاء فى دار الكتب المصرية ، وفى التيمورية رجعت إليها فوجدت من جملة وصفها ، أنه يعنى بالشواهد الأدبية للعبارات ، ويهتم بالصناعة النحوية فى غير إسراف . ولا يعنى بالوقوف مثل عنايته بالقراءات ، ويورد من التفسير المنقول ، مع الاختيار منه ، فى غير إكثار ، كما ينقل عن الطبرى ، ويناقش المنقول عنه أحيانا . . .

وأما الكتاب الثالث المصرى ، فيحسن أن نشير بين يدى الكلام عنه ، إلى ما كان لمصر من حظ قديم فى التفسير المنقول ، فقد حدثوا عن أحمد بن حنبل ، أن مصر صحيفة فى التفسير ، رواها على بن أبى طلحة الهاشمى — وهو طريق جيد فى الرواية عن ابن عباس ؛ لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً وقد اعتمد

عليها البخارى في صحيحه كثيراً فيما يعلقه عن ابن عباس كما ينقل ذلك عن ابن حجر (١) وفي التفسير المنقول خلف جلال الدين السيوطى المصرى — ت ٩١١ هـ — كتاب « الدر المنثور في التفسير المأثور » وهو مطبوع ، وقد ذكرت هذه الكتب الثلاثة في الكلام عن نشأة التفسير من حيث كانت تفسيراً نقلياً ، وهو أول ما ظهر من صنوف التفسير ، وإن كنت أقدر أن هذه الكتب قد تفاوتت قيمها وأحوالها بهذا التراخى البعيد في الأزمنة — من القرن الثالث إلى العاشر — وأن ما فيها من تفسير مأثور قد تأثر بما حوله من عوامل وموجهات ، يتبينها جلياً من يتصدى لتاريخ التفسير والتأليف فيه .

ج — تدرج التفسير

وهنا أحب أن يقدر الدارس ، أنى لا أتصدى لكتابة تاريخ للتفسير ، أو تخطيط هذا التاريخ . وإنما هى إشارات عامة بمحالة عن المعالم الكبرى في حياته . . . وذلك أننا لانجروا على التفكير في كتابة تاريخ للتفسير يمكن أن يسمى تاريخاً بالمعنى الصحيح إلا بعد أن نقف على ما خلفت تلك العهود الطوال من آثار فيه ، وهى كثيرة واسعة ، متنوعة المقاصد والاتجاهات ، يدهشك ما تقرأ فى وصفها وسعتها وجلال مؤلفيها ففي القرن الثانى كتب عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة تفسيراً للقرآن عن الحسن البصرى رحمه الله (٢) وناهيك بهما جلالة قدر . ولأبى الحسن الأشعرى المتكلم ، كتاب المختزن ، لم يترك آية تعلق بها بدعى إلا أبطل تعلقه بها ، وجعلها حجة لأهل الحق ؛ وذكر بعضهم أنه رأى منه طرفاً وكان بلغ سورة الكهف وقد انتهى إلى مائة

(١) الاتقان ٢ : ٢٢٣ ، وفيه بعد هذا النقل « أت ابن أبى طلحة لم يسمع التفسير عن أبى عباس ، وإنما أخذه عن مجاهد أو سعيد بن جبير ويقول ابن حجر « إن الوساطة ثقة فلا ضير فى ذلك »

(٢) ابن خلكان ١ : ٤٨٦ ط بولاق .

كتاب (١) . . إلى غير ذلك من صنيع له في التفسير يذكرون عظيم قيمته . وللإمام الجويني تفسير كبير ، وللقشيري تفسير كبير . وإلى جانب هؤلاء رجال اللغة والأدب يذكرون منهم : أبا طالب المفضل بن سبلة الكوفي (ق ٣) له كتاب معاني القرآن ؛ وابن الأنباري (ق ٤) كان يحفظ مائة وعشرين تفسيراً من تفاسير القرآن بأسانيدھا وقد ألف كتاب « مشكل القرآن » أملاه فبلغ فيه إلى « هـ » وما أتته . وقد أملاه سنين كثيرة (٢) ولأبي هلال العسكري كتاب المحاسن في تفسير القرآن خمس مجلدات (٣) . . ولو رحت أذكر لك جانباً من هذه الطرائف التي كتبها أئمة الفنون المختلفة في التفسير لملائت من ذلك صحفاً وصحفاً ؛ فهلا ترى معي ، أن من الفحة علياً أن نزع أننا نتحدث في شيء من تاريخ التفسير ، قبل أن نخبر قديماً في البحث عن هذه الكتب وجمعها ودرسها !!! أحسب أن نعم .

وهل يود محبو العلم القرآني ، ثم هذه المعاهد الدينية الفسيحة ، ثم الدولة معهم أن يجمعوا من ذلك كل ما عرفت الدنيا من هذا المكتوب عن القرآن ؛ أو صورة منه على الأقل ، قبل أن يفكروا في أشياء كثيرة لا تقدم العلم الديني ولا تؤخره !!!

وإذا ما نظرنا إلى المعالم الكبرى في تدرج التفسير ، وجدنا أن صلة الإسلام بالحياة ، ومنزلة القرآن في ذلك من حيث هو مرجع المسلمين في شؤونهم المختلفة ، قد جعلت تدرج الحياة يظهر أثره واضحاً في حياة التفسير . فبعد ما كان يشيع التحرج من القول في القرآن حتى في تفسير لفظة كالأب (٤) والخبر (٥) . صار الأمر إلى اختلاف الناس في أن تفسير لقرآن : هل يجوز لكل ذي علم الخوض فيه ؟ فرأى قوم أن من كان ذا أدب وسيع ،

(١) تبين كذب المفترى ص ١٣٣ ط الشام .

(٢) طبقات الأدباء لابن الأنباري ص ٣٣٢ .

(٣) ترجمته من مقدمة كتابه ديوان المعاني .

(٤) قصة عمر - رضه - في تفسير كلمة الأب .

(٥) قصة أبي عبيدة والأصمعي في تفسير كلمة الخبر

فموسع له أن يفسره ؛ وقال قوم لا يجوز لأحد تفسير شيء من القرآن وإن كان عالماً أديباً . . . وإنما له أن ينتهي إلى ما روى عن النبي - ص - وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة - رضه - . . الخ . وكان التحقيق ، أن المذهبين هما القلوب والتقصير ، فمن اقتصر على المنقول إليه ، فقد ترك كثيراً مما يحتاج إليه ، ومن أجاز لكل أحد الخوض فيه فقد عرضه للتخليط (٢) . وعلى أساس هذا التحقيق ذهبوا يبينون ما ينطوي عليه القرآن ، وما يحتاج إليه مفسره من العلوم ؛ ويذكرون شرائط المفسر ويمدون من ذلك علوماً لغوية وعقلية ، وموهبة ، من تكاملت فيه ، خرج من كونه مفسراً للقرآن برأيه ؛ لأن القائل بالرأي إذ ذاك إنما هو من لم يجتمع عنده الآلات التي يستعان بها في ذلك ؛ ففسره تخميناً وظناً (٣) وهو التفسير بمجرد الرأي .

هكذا يلمح الناظر في تدرج التفسير طرفين متقابلين ، ووسطاً أو أوساطاً ، يختلف قربها من الطرفين ؛ فأما أحد هذين الطرفين وأولهما فهو : التخرج من القول في القرآن على نحو ما يروى عن رجال من الصدر الأول ومن تلامهم ؛ والمنقول في ذلك غير قليل ، وحسبك أن مالك بن أنس ، وهو الذي يذكر أصحاب المبادئ إنه واضع التفسير - بمعنى مدونه - يروى هو نفسه أن سعيد بن المسيب كان إذا سئل عن تفسير آية القرآن قال : إنا لا نقول في القرآن شيئاً (٤) . . وأما الطرف الثاني المقابل فهو الذي تلمحه من عبارة الراغب السابقة ، وهو إجازة الخوض في القرآن لكل أحد . والغزالي في الإحياء (٥) . . بعد الاحتجاج والاستدلال على بطلان القول بالآيتكلم أحد في القرآن إلا بما يسمعه يقول : فبطل أن يشترك الجماع في التأويل ؛ وجاز لكل واحد أن

(١) مقدمة التفسير للراغب الاصفهاني ص ٢٢٢ و ٢٢٣ ؛ وفي العبارة بعض اضطراب يسهل الترجيح معه بأن بعض لفظها محرف ؛ وقد أخذت منها بالبعد عن ذلك .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٥

(٣) أصول التفسير لابن تيمية ص ٣١

(٤) ١ : ٢٦٦ ط الحلبي

يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحد عقله ؛ كما قال قبل ذلك . . . إن في فهم معاني القرآن مجالا رحباً ومتسعاً بالغاً ، وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس متبهي الإدراك فيه . . . هما طرفا نقيض — كما يقال — وتستطيع أن تلح بينهما **انتقالات** تدريجية متعددة : فبعد التخرج ، أمكن الوقوف عند المنقول ، وكان ذلك المنقول قليلاً ثم كثر النقل واتسع ، حتى استفاض وشمل ما ليس موثقاً به ؛ ثم داخلت النقل محاولات فهم شخصي تقبلوا منها أولاً ما يرجع إلى اللغة وحدود دلالة الكلمات . . . ثم ظلت محاولات الفهم الشخصي تزداد وتتأثر بالمعارف المختلفة حتى كان من كتب التفسير ما يجمع أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير كالذي فعله الرازي في تفسيره حتى قال عنه بعض المتطرفين من العلماء : فيه كل شيء إلا التفسير (١) . . . وإذا كان الراغب الإصفهاني في أوائل القرن الخامس ، يرى خوض كل أحد في القرآن يعرضه للتخليط ؛ فهذا أبو حيان في القرن الثامن يقول إن ما ذكره الرازي وغيره في التفسير يشبه عمل النحوي ، بينما هو في علمه يبحث في الألف المنقلبة ، إذا هو يتكلم في الجنة والنار ، ثم يقول : ومن هذا سبيله في العلم فهو من التخليط والتخييط في أقصى الدرجة (٢) . . . وقد اختلف حظ المفسرين من هذا التعرض ، وإن قلت سلامتهم **حياتاً**

وأنتك لتلح على غرار هذا تدرج التدوين والتأليف في التفسير ؛ فبينما توجد بمصر أو غيرها صحيفة فيه ، كما سبق ، إذا هو جزء أو أجزاء تلقيت عن الصحابة ، ثم هي أكثر من ذلك مما يجمع أقوال الصحابة والتابعين ، ثم يختلط الفهم العقلي فيه بالتفسير النقلى رويداً ، كالذي تراه في مثل تفسير ابن جرير الطبري ، وما ذكرناه من كتب التفسير النقلى . ثم يغلب هذا الجهد العقلي على الكتب ، فيكون أظهر ما فيها ، وإن لم

(١) أبو حيان البحر المحيط ١ : ٣٤١

(٢) أبو حيان ؛ الموضع السابق

تخل مع ذلك من منقول يتصل بأسباب النزول مثلاً أو يتصل بغيرها من المروى ،
فترى الزمخشري في كشافه ، ينحو هذا النحو الخاص في تفسير القرآن تفسيراً ينصر
مذهباً بعينه ، ولكنه لا يخلى كتابه من هذا المنقول ، بل من ضرب ضعيف منه ،
كالحديث الذى يسوقه فى فضائل القرآن سورة سورة ، فانه موضوع باتفاق أهل
العلم (١) . وهكذا تداخل الصنفان ، واتجهت الكتب اتجاهاً متنوعة ، بعد ذلك .

هـ — طرائق التفسير

رأينا ظهور الصنف الثانى من التفسير ، المقابل لتفسير الرواية النقلى ، وهو تفسير
الدراية العقلى ، ورأينا كيف أنهما اتصلا وتداخلا ، وإذا كان ابن خلدون يقول فى
المقدمة ان ثانيهما قل أن يفرد عن الأول إذ الأول هو المقصود بالذات وانما جاء هذا —
الثانى — بعد أن صار اللسان وعلومه صناعة . . نعم قد يكون — الثانى — فى بعض
التفسيرات غالباً () ، إذا قال ابن خلدون هذا فانا لنقول له ، ان هذا الثانى قد وصل
القرآن بثقافة المتصدين لتفسيره وصلاً قوياً ، شديد الأثر ، انتهى الى التخليط الذى
ذكره أبو حيان ، فأظهر ألواناً من التفسير هان فيها أمر النقل . . وهى طرائق من
التفسير لعلها لما لا يسهل حصره وتبويبه ، اذا كانت متأثرة باعتبارات كثيرة ، متعددة
واذا كانت علوم اللسان بعد ما صارت صناعة ، قد وجهت التفسير ، فان علوماً عقلية
ونقلية قد وجهته توجهات مختلفة ، وإن مقاصد وأغراضاً فى الحياة العملية ، سياسية
وغيرها ، قد اشتركت فى هذا التوجيه أيضاً ، وتركت هذه وغيرها مناهج وكتبا
كثيرة ، وأثرث فى مجرى الحياة والثقافة الإسلامية تأثيراً قوياً فعلاً . .

والن كان جولد تسهر فى كتابه « اتجاهات التفسير » ، قد تحدث عن تفسير الرواية
والتفسير الاعتقادى ، والتفسير الصوفى ، والتفسير الشيعى ، وتفسير التجديد الإسلامى

(١) أصول التفسير لابن تيمية ص ١٩

(٢) المقدمة ص ٣٨٤

الحديث ، فإلم بأصول كبرى ينطوى تحتها كثير من طرائق التفسير واتجاهاته ، فإن الى جانب ذلك تفسيرات لغوية ونحوية ، وأدبية ، وفقهية ، وتاريخية ، وغيرها ، لعله لايسهل ادماجها في هذه الأصول ، وليس يصح — فيما أرى — أن نتحدث عن هذه الاتجاهات واحداً واحداً ، لنبين أثرها في توجيه فهم القرآن ، أو أثر اتصالها بالقرآن في حياة تلك العلوم والفنون نفسها الا بعد أن يكتمل لنا العثور على أكثر ما يمكن من كتب ودراسات في أنواع التفسير المختلفة ، ثم تنسيقها ودرسها في روية واتقان درسا يهيئ لمثل هذا القول الشامل فيها .

على أنا اذا ما تركنا في هذا الإجمال الخاطف الكلام عن التفسير الصوفي والتفسير التشيعي فلم نقف عندهما لبيان ما زاداه على معاني القرآن ، وللحكم على منهجها وما ماثله من مناهج لها طابعها المخالف ، فلم نتحدث عن الظاهر والباطن والحد والمطلع وما أشبه ذلك ، ولا عما أخذ من القرآن من علوم خفية أو خاصة ، وكان من عذرنا في ذلك — فوق الإجمال وضيق الفرصة — أن مثل هذه الاتجاهات قد قل تعرض الحياة لها ، وخضت بلواها بها الآن . . ثم إذا ما تركنا الحديث عن الفنون الأدبية المختلفة ، وصلتها بالقرآن إلى فرصة أفسح ، وأهدأ ، من التاريخ الأدبي ، فإنا رغم هذا كله لنشعر بضرورة القول في صلة التفسير بالعلوم العقلية الظاهرة ، لأن فكرة تفسير القرآن بالعلم وأخذ هذه العلوم من القرآن ، قد حارها نفر من القدماء والمحدثين جميعاً ، حتى ما نوافق على قول الأستاذ كارادي فو ، في ختام مادة تفسير ما معناه أن تضمنين التفسير كثيراً من الآراء المستقاة من الفلاسفة والعلوم الحديثة محاولة في تجديد دراسة التفسير ، لانوافق على هذا لأن وصل القرآن بالفلسفة والعلوم العملية محاولة جد قديمة .

و — التفسير العلمي

وهو التفسير الذي يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارة القرآن ، ويجتهد في استخراج

مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها ، وقد وقع ذلك على رغم ما قرر في ميادين عليية إسلامية مختلفة ، من قواعد فهم عبارة القرآن ، واتسع القول في احتواء القرآن جمل العلوم جميعاً ، فشمّل إلى جانب العلوم الدينية اعتقادية وعملية ، وظاهرة وخفية ، سائر علوم الدنيا . . . ولعل الغزالي — فيما رأيت — كان إلى عهده ، أكثر من استوفى بيان هذا القول ، فهو في الإحياء يعرض لهذا (١) . . . ويقرر أن كل ما أشكل فهمه على النظرار واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات في القرآن إليه رموز ، ودلالات عليه ، وأن القرآن يشير إلى مجامع العلوم كلها ، ثم هو يزيد ذلك بياناً وتفصيلاً في كتابه جواهر القرآن (٢) الذي يبدو أنه ألّفه بعد إحياء علوم الدين (٣) إذ يقعد الفصل الخامس منه لكيفية انشعاب سائر العلوم مطلقاً من القرآن ، بعد ما بين في الفصل الرابع قبله ، كيفية انشعاب العلوم الدينية كلها منه عن تقسيمات وتفصيلات تولّاها ، وهو بعد ذكر العلوم الدينية وما لا بد منه لفهمها من العلوم اللغوية ، وبعد ذكر علم الطب والنجوم ، وهيئة العالم ، وهيئة بدن الحيوان ، وتشريح أعضائه وعلم السحر والطب وغير ذلك ، يشير إلى أن وراء ذلك علوماً أخرى ، يعلم تراجمها ، ولا يخلو العالم عن معرفتها ، وفي الامكان والقوة أصناف من العلوم بعد لم تخرج من الوجود وإن كان في قوة الآدمي الوصول إليها ، وعلوم كانت قد خرجت إلى الوجود ، واندرست الآن ، فلن يوجد في هذه الأعصار على بساط الأرض من يعرفها ، وعلوم أخرى ليس في قوة البشر أصلاً إدراكها ، والإحاطة بها ، ويحظى بها بعض الملائكة المقربين . . . ثم يعقب بأن هذه العلوم ، ما عددناها وما لم نعدّها ، ليست أوائلها خارجة عن القرآن ، فإن جميعها معترفة من بحر واحد ، من بحر معرفة الله تعالى ، وهو بحر الأفعال ، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له ، إن البحر لو كان مداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد ، وعرض

(١) في الباب الرابع في فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير نقل ج ١ : ٢٥٩ - ٢٦٤ ط الحلي

(٢) مطبع بمطبعة كردستان العلمية بمصر سنة ١٣٢٩

(٣) الغزالي : جواهر القرآن ص ٢٨ ، ٢٩

في بيان أفعال الله ، والحاجة في فهمها إلى مختلف العلوم كفعل الشفاء والارض لا يفهمان إلا بالطب ، وفعله في تقدير الشمس والقمر ومنازلها بحسبان لا يعرف إلا بالهيئة إلى أن يشير أخيراً إلى أنه لو ذهب ينصل ما يدل عليه آيات القرآن ، من تاصيل الأفعال لطل ، ولا تمكن الإشارة إلا إلى مجامعها (١) ، وهكذا ظهرت آثار الثقافة الفلسفية والعلمية للمسلمين في تفسير القرآن كما ظهرت آثار التصوف والحنكة في التفسير ، وكما ظهرت آثار النحل والأهواء فيه ظهوراً جلياً . . . واستمرت هذه النزعة في التفسير العلمي ، وأصبحت فيما يبدو وجهاً من تعليل إعجاز القرآن ، أو بيان صلاحية الاسلام للحياة ، وإذا كان هذا التفسير قد ظهر في مثل محاولة الفخر الرازي ضمن تفسير القرآن فقد وجدت بعد ذلك كتب مستقلة في استخراج العلوم من القرآن ، وتتبع الآيات الخاصة بمختلف العزم ، وراجت هذه الفكرة في العصر المتأخر ، فأخرجت لنا مثل كتاب كشف الأسرار النورانية القرآنية فيما يتعلق بالاجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية . لمحمد ابن أحمد الاسكندراني الطيب من أهل القرن الثالث عشر الهجري ، وكتاب تبيان الأسرار الربانية في النبات والمعادن والخواص الحيوانية له ، وقد طبع الكتاب الأول في القاهرة سنة ١٢٩٧ هـ والثاني في سوريا سنة ١٣٠٠ هـ . ومثل رسالة عبد الله فكري باشا وزير المعارف المصرية سابقاً في مقارنة بعض مباحث الهيئة بالوارد في النصوص الشرعية طبعت بالقاهرة سنة ١٣١٥ هـ ، وانحاز إلى هذه الفكرة من رجال الإصلاح الاسلامي المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبي فاستخرج (٢) من القرآن مكتشفات حديثة ، يقول : إنه ورد التصريح أو التلييح بها في القرآن منذ ثلاثة عشر قرناً ، وما بقيت مستورة تحت غطاء من الخفاء ، إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن شاهدة بأنه كلام رب لا يعلم الغيب سواه . . كما يعرض لها في إعجاز القرآن ، الأديب المصري المرحوم مصطفى صادق

(١) جواهر القرآن ٣١ - ٣٤

(٢) طبائع الاستبداد ص ٢٦ - ٢٨

الرافعي (١) فيعقد فصلا عنوانه « القرآن والعلوم ، يحنح فيه إلى مثل ما سبق من احتواء القرآن على جمل العلوم وأصولها ، ويأخذ في ذلك بالبعيد والقريب ، إذ ينقل كلمة السيوطي في الاتقان . حول أخذ الباحثين علومهم ، ويعلق على استخراج علم الواقيت من القرآن ، فيقول (٢) « وإذا أطلق حساب الجمل في كلمات القرآن كشف منه كل عجائب العصور وتواريخها ، وأسرارها ؛ ولولا أن هذا خارج عن غرض الكتاب لجئنا منه بأشياء كثيرة من القديم والحديث ، كما يشير إلى استخراج مستحدثات الاختراع ، وغوامض العلوم الطبيعية من القرآن ؛ ويدكر شواهد لذلك حتى ينتهي إلى أن يقول (٣) « ولعل متحققا هذه العلوم الحديثة لو تدبر القرآن وأحكم النظر ، وكان بحيث لا تعوزه أداة الفهم ، ولا يلتوى عليه أمر من أمره لاستخرج منه إشارات كثيرة ، توميء إلى حقائق العلوم ، وإن لم تبسط من أنبائها وتدل عليها ، وإن لم تسمها ، . . . ولعل من أكثر من جمع في هذا وأطال المرحوم الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره . وما يتصل بهذا من قرب ، ما ظهر من مؤلفات عليه عن هذا . . . عناية خاصة بهذا الجانب ، وتوخوا هذا التطبيق ، كمحاضرات المرحوم الأستاذ محمد توفيق صدقي في سنن الكائنات وما أشبهها

ز - انظار التفسير العلمي

إذا كان الاتجاه إلى التفسير العلمي قديماً ، وكانت العناية به أكثر نوعاً ما . في العصر المتأخر ، فإن المخالفة في صحة هذا التفسير قديمة أيضاً ، ولعله اليوم أقل رواجاً عند المثقفين . . . فأما المخالفة القديمة فيه ، فهي ما يبديه الأصولي الأندلسي ، أبو إسحق

(١) إعجاز القرآن له ، ص ١٤٥ - ١٦٦

(٢) الإعجاز له ص ١٥١ (هامش)

(٣) الإعجاز له ص ١٦٤

إبراهيم بن موسى الشاطبي — ٧٩٠ هـ — في كتابه المواقفات (١) في أثناء أبحاثه عن القرآن إذ تكلم أولاً . عن أن هذه الشريعة المباركة أمية ، لأن أهلها كذلك ، فهو أجري على اعتبار المصالح ، ودلل على ذلك بأمور ، ثم عقب بفصل عن : أن العرب كان لها اعتناء بعلوم ذكرها الناس ، وكان لعقلائهم اعتناء بمكارم الأخلاق . واتصاف بمحاسن الشيم ، فصححت الشريعة منها ما هو صحيح ، وزادت عليه ، وأبطلت ما هو باطل وبينت منافع ما ينفع من ذلك ، ومضار ما يضر منه ، وذكر من ذلك علم النجوم وعلم الانواء . وأوقات نزول الأمطار وإنشاء السحاب ، وهبوب الرياح المثيرة لها ، ومنها علم التاريخ وأخبار الأمم الماضية ، ومنها الطب وفنون البلاغة ، وهذا من العلوم الصحيحة وذكر من الباطل علم العياقة والزجر ، والكهانة وخط الرمل ، والضرب بالخصي . والطيرة . وقد أبطلتها الشريعة . . وهو يبين في كل ذلك ، أن الشريعة في تصحيح ما صححت ، وإبطال ما أبطلت ، قد عرضت من ذلك ما تعرفه العرب ، ولم تخرج عما ألقوه . . وبعد شرح هذه الفكرة المبينة لرأيه في علوم القرآن ، يتقدم لبيان ذلك ، بأسباب وإيضاح ويعقد لذلك بحثاً خاصاً ، يقول فيه : ما تقرر من أمية الشريعة وأنها جارية على مذهب أهلها وهم العرب ، ينبني عليه قواعد : — منها أن كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد ، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات ، والتماليم والمنطق ، وعلم الحروف ، وجميع ما نظر فيه الناظرون ، من هذه الفنون وأشباهاها ، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح ، ثم ينظر في حال السلف ، نظرة عليية ، فيحتج بها على صحة دعواه ، ويقول : والى هذا ، فإن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن ، وبعلمه ، وما أودع فيه ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم (٢) في شيء من هذا المدعى .

(١) طبع السلفية ١٣٤١ هـ ج ٢ ص ٤٦ وما بعدها

(٢) يذكرنا قول الشاطبي هذا بما يورده الغزالي في الأحياء — ١ ، ٢٦١ ، من قول علي : من فهم القرآن فسر به جل العلم ، وتجد النفس حتى من صياغة هذه العبارة أشياء وأشياء ! !

سوى ما تقدم ، وما ثبت فيه من أحكام التكليف ، وأحكام الآخرة ، وما يلي ذلك ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة . إلا أن ذلك ؛ يكن فدل على أنه غير موجود عندهم ، وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه ؛ تقرير شيء مما زعموا . نعم تضمن علومها هي من جنس علوم العرب أو ما ينبغي على معروده مما يتعجب منه أولو الألباب ، ولا تبلغه ادراكات العقول الراجعة ، دون الاهتدا بأعلامه ، والاستنارة بنوره ، أما أن فيه ما ليس من ذلك فلا . . .

وبعد ما احتج الشاطبي لدعواه ، عرض لأدلة أصحاب هذا التفسير العلي ، فقال في تلخيص حججهم : ربما استدلوا على دعواهم :

١ — بقوله تعالى ، ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ، وقوله : ما فرطنا في الكتاب من شيء ونحو ذلك

٢ — بفواتح السور ، وهي مما لم يعهد عند العرب ، وبما نقل عن الناس فيها

٣ — بما حكى من ذلك عن علي بن أبي طالب — رحمه — وغيره

ثم تقدم لنقض هذه الأدلة واحداً واحداً فقال عن الأول : فأما الآيات فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف أو التعبد . . أو المراد بالكتاب في قوله : ما فرطنا في الكتاب من شيء ؛ اللوح المحفوظ ؛ ولم يذكر فيها ما يقتضي تضمنه جميع العلوم النقلية والعقلية . . وفي الرد على الثاني يقول : وأما فواتح السور فقد تكلم الناس فيها بما يقتضي أن للعرب به عهداً ، كعدد الجمل الذي تعرفوه من أهل الكتاب ، حسب ذكره أصحاب السير ، أو هي من التشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى ، وغير ذلك وأما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون ؛ ولم يدعه أحد ممن تقدم فلا دليل فيها على ما ادعوا . . وفي الرد على الثالث يقول : وما ينقل عن علي أو غيره — وقد أوردناه طرفاً — في هذا لا يثبت ، فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه ، كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه ، ويجب الاقتصار في الاستعانة على فهمه على كل ما يضاف إليه إلى العرب خاصة فيه يوصل إلى علم ما أودع من الأحكام الشرعية ؛ فمن طلب

بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه ؛ وتقول على الله ورسوله فيه . . . وتلك هي الخلاصة الشاملة لما أكمله الشاطبي بيانا في غير موضع من المواقفات ، بعد ما عرض لأصله الجامع ، فيما أشرنا إليه من صفحات

وإذا كان هذا هو الرأى القديم العهد ؛ في فهم القرآن فهماً يجعله مصدر العلوم المختلفة ؛ ويأخذ كله باصطلاحات حادثة بعده بأزمة غير قصيرة فانك لتضم الى هذا البيان من النظرات الحديثة ما يؤيده ويعززه ، فمنها

١ - الناحية اللغوية ؛ في حياة الألفاظ وتدرج دلالتها ؛ لو ملكنا منها ما لا بد لنا أن نملكه ، في تحديد هذا التدرج ؛ وتأريخ ظهور المعاني المختلفة للكلمة الواحدة ؛ وعدم استعمالها فيها لوجدنا من ذلك ما يحول بيننا وبين هذا التوسع العجيب في فهم ألفاظ القرآن ؛ وجعلها تدل على معاني وإطلاقات لم تعرف لها ؛ ولم تستعمل فيها ؛ أو إن كانت تلك الألفاظ قد استعملت في شيء منها ؛ فباصطلاح حادث في الملة ؛ بعد نزول القرآن بأجيال . وسترى فيما يل - من بيان عن التفسير اليوم ؛ وكيف يتناول - ما يكشف عن هذا الجانب كشفاً كافياً

٢ - الناحية الأدبية أو البلاغية - إن شئت - والبلاغة فيما يقال : مطابقة الكلام لمقتضى الحال فهل كان القرآن على هذا النحو المتوسع من التفسير العلى ؛ كلاماً يوجه الى من خطب به من الناس في ذلك العهد ؛ مراداً به تلك المعاني المذكورة مع أنها معان من العلم لم تعرفها الدنيا الا بعد ما جازت آماداً فسيحة ؛ وجاهدت جهاداً طويلاً . ارتقى به عقلها وعلمها !!! وهب هذه المعاني العلية المدعاة. كانت هي المعاني المرادة بالقرآن فهل فهمها أهل العربية منه إذ ذاك وأدركوها ؟

وإذا كانوا قد فهموها فما لنهضتهم العلية في علوم الحياة المختلفة لم تبدأ بظهور القرآن ، ولم تقم على هذه الآيات الشارحة لمختلف نظريات العلوم المفهومة لدقائقها ؟ ! وإن كانت لم تفهم منها ، ولم يدركها أصحاب اللغة الخالص من عبارتها كما هو الواقع

فعلًا فكيف تكون معاني القرآن المرادة ؟ ! وكيف تكون تلك الألفاظ مفهومة لها وهل هذه هي المطابقة لمقتضى الحال !

٣ - وهناك الناحية الدينية ، أو الاعتقادية ، وهي التي تبين مهمة كتاب الدين وهل هو كتاب يتحدث الى عقول الناس وقواهم العالمة عن مشكلات الكون ، وحقائق الوجود العلية ؟ وكيف يسير ذلك حياتهم ، ويكون أصلاً ثابتاً لها ، تختص به الرسائل السماوية ، كما هو الشأن في القرآن ، مع أن هؤلاء المتدينين لا يقتفون من معرفة هذه الحقائق عند غاية محدودة ، ولا يقتفون منها عند مدى ما ؟ ! فكيف تؤخذ جوامع الطب والفلك والهندسة والكيمياء من القرآن على نحو ما سمعت آنفاً ، وهي جوامع لا يضبطها اليوم أحد إلا بغير ضبطه لها بعد يسير من الزمن أو كثير ، وما يضبطه منها القدماء قد تغير عليهم فيما مضى ، ثم تغير تغيراً عظيماً فيما تلا ! !

والحق البين أن كتاب الدين لا يعنى بهذا من حياة الناس ولا يتولاه بالبيان ، ولا يكفهم مؤنته حتى يلتمسوه عنده ، ويعدوه مصدراً فيه

وأما ما اتجهت اليه النوايا الطيبة من جعل الارتباط بين كتاب الدين والحقائق العلية المختلفة ، ناحية من نواحي بيان صدقه ، أو اعجازه ، أو صلاحيته للبقاء ... الخ فربما كان ضرره أكثر من نفعه ، على أنه ان كان لابد لاصحاب هذه النوايا ومن لف لفهم من أن يتجهوا اليه ، ليدفعوا مناقضة الدين للعلم ، فلعله يكنى في هذا وبنى ألا يكون في كتاب الدين نص صريح يصادم حقيقة علمية يكشف البحث أنها من نوااميس الكون ونظم وجوده ، وحسب كتاب الدين بهذا القدر صلاحية للحياة ، ومسايرة للعلم ، وخلاصاً من النقد ... على أنى حين أسمح بهذا القدر في سبيل ارضاء رغبات هؤلاء الطبيي النية . لا أنسى أن أذكرهم بأن التناول الفنى لحقائق الكون ومشاهده ، هو التناول الذى يقصد به الدين رياضة وجدانات الناس . ويوجهه لعامةهم وخاصتهم ، وعلمائهم وأنصاف علمائهم بل لجهلائهم أيضاً - كما هي مهمة الدين والغاية

من تلاوة كتابه بينهم جميعاً وهذا التناول إنما يقوم على المشهود البادى من ناحية روعته فى النفس ؛ ووقعه على الخواص ؛ وانفعال الناس به ؛ لا من ناحية دقة قرائنه ومنضبط نواحيه فى معادلات جبرية أو أرقام حسابية ؛ أو بيان جاف لخصائصه وحقائقه . . . وإتيان هذا التناول على المشاهد ؛ والمدرّك بآدى الرأى ؛ والمؤثر فى النفس المثير للانفعال . لا يجب الوفاء فيه بحماية الحقائق العلية ؛ والخصائص المجربة لهذه العوالم الموصوفة والمناظر التى لا يراد من تناولها إلا إثارة الشعور بجلالها وجمالها ؛ ودلائلها على عظمة القوة المدبرة لها المحققة لنظامها ؛ ولو التزم فى شىء من هذا تصحيح المقررات العلية لأخل هذا الالتزام كثيراً بالأهداف الفنية الوجدانية ؛ التى يريد الدين تحقيقها ونفع الحياة بها عن طريق التأمل المتدين ؛ والاعتبار النفسى العاطفى المريح قبل كل شىء آخر . . .

ومن هنا قد يبدو فى تعبير القرآن ما يظهر متعارضاً مع شىء من المقررات العلية؛ وإن أمكن التوفيق بينهما . ولا أحسب أن عليه بأساً بشىء من هذا ولا فيه ضير . . . غير أن أصحاب هذه الرغبات الذين يبينون الصدق ؛ و الإعجاز ؛ أو الصلاحية لكتاب الدين بهذا النحو من التفسير العلمى خير لهم أن يقدروا مثل هذا الاعتبار ، فلا يتكلفون ما يتكفون من ربط الكتاب بالعلم ؛ على أنهم إن كانوا لابد فاعلين لحسبهم كما تقدم . ألا يكون فى القرآن نص صريح يصادم حقيقة علية ، دون أن يمكن التوفيق بينه وبينها . . . وبيان هذا الأصل مما لا يسمح المقام فيه بأكثر مما قيل

وهناك نواح أخرى من النظر محدثة ، تؤيد الرأى القديم الذى بينه العاطفى فى كيفية فهم عبارة القرآن ؛ وتجعل من الخير ألا توجه العناية إلى مثل هذا الضرب من التفسير العلمى ، لأنه ليس بذى جذوى على القرآن نفسه ، والقرآن غنى عن أن يعتز بمثل هذا التكلف الذى يوشك أن يخرج به عن هدفه الإنسانى الاجتماعى فى إصلاح الحياة ، ورياضة نفوس الناس جميعاً على اختلاف حظهم من العلوم الطبيعية والرياضية وما إليها .

ح - الواه التفسير

وانما نشير تحت هذا العنوان المتجوز إلى ظاهرة واضحة الأثر هي : أن الشخص الذى يفسر نصاً ، يلون هذا النص — ولا سيما النص الأدبى — بتفسيره له وفهمه إياه . إذ أن المتفهم لعبارة هو الذى يحدد بشخصيته المستوى التكرى لها . وهو الذى يعين الأفق العقلى ، الذى يمتد إليه معناها ومرماها يفعل ذلك كله ، وفق مستواه الفكرى وعلى سعة أفقه العقلى . . لأنه لا يستطيع أن يمدو ذلك من شخصيته ، ولا تمكنه مجاوزته أبداً . . فلن يفهم من النص إلا ما يرقى إليه فكره ويمتد إليه عقله . وبمقدار هذا يحتكم فى النص ويحدد بياته ، فهو فى حقيقة الأمر يجر إليه العبارة جراً ، ويشدها شداً ، يطمها حيناً إلى الشمال ، وحيناً إلى الجنوب ، وطوراً يجذبها إلى أعلى ، وآونة ينزل بها إلى أسفل ، فيفيض عليها فى كل حال من ذاتها ولا يستخرج منها إلا قدر طاقته الفكرية ، واستطاعته العقلية ، وما أكثر ما يكون ذلك واضحاً ، حيناً تسعف اللغة عليه ، وتتسع له ثروتها ، من التجوزات والتأولات ، فتمد هذه المحاولة المفسرة بما لديها من ذلك . . وإن المستطاع منه فى اللغة العربية لكثير وكثير .

على هذا الأصل وجدنا آثار شخصية المتصدين لتفسير القرآن ، تطبع تفسيرهم له ، فى كل عهد ونصر ، وعلى أى طريقة ومنهج ؛ سواء أكان تفسيرهم له عقلياً مروياً ، أم كان عقلياً اجتهادياً . ولعله لا يبدو هذا الأثر الشخصى واضحاً فى التفسير المروى لأول وهلة ؛ ولكنك تبينه إذا ما قدرت أن المتصدى لهذا التفسير الثقلى إنما يجمع حول الآية من المرويات ، ما يشعر أنها متجهة إليه ، متعلقة به ، فيقصد إلى ما تبادر لذهنه من معناها ، وتدفعه الفكرة العامة فيها ؛ فيصل بينها وبين ما يروى حولها فى اطمئنان . . وبهذا الاطمئنان يتأثر نفسياً وعقلياً ، حيناً يقبل مروياً ويربى به ؛ أو يرفض من ذلك مروياً — ان رفضه — ولم يرتح إليه . . وكذلك راج بين القوم — كما لاحظ ابن خلدون فيما أوردنا من عبارته — ما هم فى شوق اليه وتعلق به ، من

أخبار بدء الخلق ، ونشأة الوجود ، وتفصيل الاحداث الكبرى في تاريخ الإنسانية الأولى لأمتهم ، وقلة المتداول بينهم منه ، فكانت كثرة الإسرائيليات !! وكان كل أولئك صورة عقلية لهذا العصر الأول

ومن هنا نستطيع القول بأنه حتى في رواج التفسير النقلي وتداوله ، تكون شخصية المتعرض للتفسير هي الملوثة له ، المروجة لصنف منه

أما حين يصير التفسير عقلياً اجتهادياً ، فإن هذا التلوين للشخصي يبدو أوضح وأجلى . وقد أشرنا الى ما لثقافة متعاطي التفسير ، من الاثر في تفسيره ؛ إذ أن ثقافته وتنوع معارفه هو الذي يحدد ناحية عنايته وميدان نشاطه ؛ وما ينتفع به في استخراج معاني العبارة ، وما يعنى به قبل غيره من هذه المعاني ، فيتأثر التفسير بذلك كله ، ويتأثر تاريخ هذه المعارف نفسها بمزاولة التفسير ، أو الاهتمام به — كما سبقت الإشارة الى ذلك —

فأنت ترى — في جلاء — ان التفسير ، على هذا التلوين — يتأثر بالعلوم والمعارف التي يلقي بها المفسر النص ، ويستعين بها في استجلاء معانيه ، كما أن وصل هذه العلوم بالتفسير ، يكسب هاتيك العلوم نفسها ، ضرباً من الثروة ، يقدر أثره في تاريخها .. فالتحوى يلقي القرآن بأصول الصنعة الإعرابية ، يحكمها في فهم معانيه ؛ ويحكم اليها في تحديد مدلولاته ؛ فيلون التفسير بمنهج دراسته وأسلوبها .. ثم هو بعد ذلك يترك في حياة النحو بهذا الوصل آثاراً ؛ تعود على دراسته ؛ ويلتمس بيانها ؛ في تاريخ حياة هذه المادة .. وهكذا تنوع ألوان التفسير ؛ وتعددت بتعدد ثقافات المفسدين له ؛ فقد سمعت أن أبا الحسن الأشعري المتكلم ؛ في كتابه الذي سموه « المختزن » لم يترك آية تعلق بها بدعى ؛ الا أبطل تعلقه بها وجعلها حجة لأهل الحق . الخ . بل ينقلون من قوله هو نفسه في وصف كتابه هذا : ان فيه من ضروب الكلام مسائل للمخالفين لم يسألوه عنها ولا سطورها في كتبهم . ولم يتجهوا للسؤال ؛ وأجاب

عنه بما وفقه الله تعالى له (١) . . . وقد جاءك نبأ ما فعل الفخر الرازي في تفسيره ؛ من جمع أقوال الحكماء والفلاسفة ؛ وشبههم في الكلاميات ؛ حتى قيل فيه ما قيل آنفاً . فهذا ومثله تلوين كلامي للتفسير ، يضني على القرآن ؛ من منهج علم الكلام ويوجه تفسيره ؛ وقد انتهى به الى نزعات مذهبية خاصة لعل من أشهرها كشف الزمخشري في منحاہ الاعتزالي . . . كما تجد تلويهاً فقهياً للتفسير ؛ وآخر بلاغياً ؛ وغيرهما قصصاً . . . وهكذا مما تعد فيه كتب كل صنف وحدها ؛ وتوصف في التاريخ التفصيلي للتفسير . . . كما يبين فيه المحجب المقبول من هذا التلوين ؛ والمنفر المكره منه ؛ كالتلوين الباطني والإشاري المتطرف ؛ وما الى ذلك من تفسير مردود ؛ يخرج القرآن عن وضعه ، ويناقص الحكمة الإلهية والغرض الاصلاحی من وصله بحياة الدين والدنيا ؛ وقد وصف القدماء مثل هذه الالوان المنفرة المستقبحة ؛ واستبعدوها .

أما ماعدا هذه المكره من التلوين ؛ فقد ينجو من هذا الاستبعاد والاستنكار ؛ ولكن يبقى النظر في تحقيقه لفائدة المرجوة من القرآن ؛ فيسلم فيه بذلك أو لايسلم . . . وفي هذا يقول الاستاذ الامام (٢) رحمه الله . . . ان الاكثار في مقاصد خاص من هذه المقاصد يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الالهي ؛ ويذهب بهم في مذاهب تنسبهم معناه الحقيقي . . . كما يقول في هذا الصدد أيضاً (٣) . . . ان التفسير قسيمان : أحدهما جاف مبعد عن الله وكتابه وهو ما يقصد به حل الالفاظ واغراب اجل ؛ وبيان ما ترمى اليه تلك العبارات والاشارات من النكت الفنية ؛ وهذا لا ينبغي أن يسمى تفسيراً وإنما هو ضرب من التمرين في الفنون كالنحو والمعاني . . . ويقول عن التلوين الفقهي بخاصة (٤) : الاحكام العملية التي جرى الاصطلاح على تسميتها

(١) ابن عساكر - تبين كذب المفتري ص ١٣٣ ط دمشق ، بتغيير في الضمائر فقط .

(٢) تفسير الفاتحة ط الماز سنة ١٣٤٥ ، ص ٩ ، ١٠ .

(٣) المصدر السابق ص ١٨ .

(٤) المصدر السابق ص ١٠ .

فقط هي أول ما جاء في القرآن ؛ وان فيه من التهذيب ودعوة الارواح الى ما فيه سعادتها والاستاذ رحمه الله حين ينفر من هذه الالوان يطمئن الى تلوين آخر وصفه في غير موضع ، فما قال (١) عنه ، « والتفسير الذي نطلبه هو فهم الكتاب . من حيث هو دين يرشد الناس الى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا ، وحياتهم الآخرة فان هذا هو المقصد الاعلى منه ؛ وما وراء هذه المباحث تابع له أو وسيلة لتحقيقه » وكذلك يقول (٢) عنه « التفسير الذي قلنا انه يجب على الناس ؛ على أنه فرض كفاية ، هو ذهاب المفسر الى فهم مراد القائل من القول ؛ وحكمة التشريع في العقائد والاخلاق والاحكام على الوجه الذي يجذب الارواح ويسوقها الى العمل ؛ والهداية المودعة في الكلام ؛ ليتحقق فيه معنى قوله (هدى ورحمة) ونحوهما من الاوصاف ؛ فالمقصد الحقيقي وراء تلك الشروط والفنون ؛ وهو الاهتداء بالقرآن ، هذا هو اللون الذي يحمل في نظر الاستاذ الإمام ومنموود للنظر اليه بعد كلمة يسيرة عن :

ط - خطة التفسير

منذ عصر مبكر (٣) جعل القوم يتناولون تفسير القرآن على ترتيب سورته ؛

(١) المصدر السابق ص ٨ .

(٢) المصدر السابق ص ١٩ .

(٣) يقول عكرمة مولى ابن عباس - ت ١٠٥ هـ - « لقد فسرت ما بين اللوحين » - اتقان .

٢ : ٢٢٥ - ولابن جريج - ت ١٥٠ هـ - ثلاثة أجزاء كبار في التفسير - اتقان ٢ : ٢٢٤ .
فهذه العبارة وتلك الأجزاء الكبار إذا ما انضم إليها ملاحظة قوة اتصال القرآن بالحياة الإسلامية وتشديد عناية القوم بأخذ الأحكام وغيرها منه ، وحاجتهم الملحة في ذلك ؛ كل أولئك وما يشبهه مؤذن بأن تتبعهم لتفسير القرآن ، واستيفاء ذلك من سورة وآيه قد كان عملاً مبكراً ، ولا أمل الى تأخيرها لنهاية القرن الثاني وأوائل الثالث - وصاحب ضحى الاسلام - ٢ : ١٤١ - يعميل الى عد القراء - ت ٢٠٧ هـ - أول ما تعرض لآية آية حسب ترتيب المصحف وفسرها على التسابع ، آخذاً ذلك من نص في فهرست ابن النديم ، وكتاب معاني القرآن للقراء في أيدينا ، وهو شبيه في تساوله للآي على ترتيبها في السور بكتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة - ت ٢٠٩ هـ أو =

يقفون منها عند بعض الآية ، أو الآية ؛ أو الجملة من الآي . فيبينون ما فيها على اللون الذى يؤثره المتناول وأخصيه شخصيته على تفسيره ؛ وما زالت تلك الخطة هى السائدة فى التفسير ، حتى عندما يعنى المفسر بناحية خاصة من القرآن ، ويؤثر موضوعا بعينه ، يتبعه فى القرآن فبين يدينا مثلاً كتاب أحكام القرآن للجصاص - ت ٣٧٠ هـ - وهو فقهى الاتجاه ، يعنى بهذا الجانب قبل كل شيء ؛ ولكنه مع هذا يتبع تلك الخطة التقليدية فى تفسير السور على ترتيبها ؛ والآي فى السور . . . وأقل من ذلك أن يتبع المفسر موضوعا خاصاً فى القرآن ؛ يجمع متفرقه ؛ فترى مثل كتاب التبتان فى أقسام القرآن لشمس الدين بن قيم الجوزية - ت ٧٥٦ هـ - الذى قصد فيه إلى درس موضوع خاص ؛ هو القسم فى القرآن . وقد انتظم نظرات عامة لصنيع القرآن فى الأقسام ؛ ولكنه مع ذلك لا يستقصى تابع النظائر ويتولاها بالتفسير المقابل الذى يستعان فيه على فهم بعض القرآن ببعضه فهما يعطى الفكرة الموحدة عن المنهج القرآنى فى القسم بشيء خاص ؛ ويخصى ما ورد من ذلك فينظر فى جملة ؛ وإن كان قد ألم بشيء من هذا المساماً سريعاً لا يشنى . . . وتلك الخطة الغالبة فى تفسير القرآن على ترتيب سورة وآية فيها ؛ مما هو موضع للنظر ؛ نقول فيه كلمة ضمن ما تعرض له من حديث عن :

التفسير اليوم

والقدماء فيما يقولون عن حياة العلوم الإسلامية قد قسموها ثلاثة أقسام : علم نضج واحترق وهو النحو والأصول ؛ وعلم نضج وما احترق وهو علم الفقه والحديث

حوالى هذا - . فإن القطعة التى منه بأينا تناول السور على ترتيبها ؛ وتعرض لما فى السورة من آي تحتاج لبيان مجازها أى المراد بها ، فلايس للقراء أولية شخصية فى هذا ، بل كانت تلك على ما يبدو خطة العصر ، ولعله لو وقع إلينا شيء مما قبل ذلك العهد لرجح أن هذا تناول المرتب لتفسير سور القرآن وآيه أقدم عهداً من صنيع القراء وأبى عيدة بنير قليل

وعلم لا نضج ولا احترق ؛ وهو علم البيان والتفسير ... ويشاء الله أن يكون علم
ليان وعلم التفسير من أول ما أقوم على خدمته في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ..
فيكون قول القدماء أنفسهم بعدم نضجها إذناً صريحاً منهم بالمحاولة المجددة في حياة
ماتين المادتين وقد تقدمت الى هذه المحاولة . تحت الشعار الذي اتخذته لنفسى وهو :
أول التجديد قتل القديم فهما ؛ وأراد الله أن يكون في دائرة المعارف الإسلامية
أول تسجيل لاجمال هذه المحاولة المجددة في مادة البلاغة ؛ وها هي ذى أول من يسجل
أصول هذه المحاولة في مادة التفسير

١ - القرآن الكريم كتاب العربية الأكبر

في الذى مضى من القول عن « ألوان التفسير » بيان للأغراض التى كان يقصد
إليها المفسرون ، ويحثون بتحقيقها أكثر من غيرها ؛ وقد سمعنا الأستاذ الإمام رحمه
الله ، ينقدهم فيما آثروا من أغراض ؛ ويرى أن الغرض الأول والأهم في التفسير ، أن
يكون محققاً لهداية القرآن ورحمته مبيناً لحكمة التشريع في العقائد والأخلاق ، والأحكام
على الوجه الذى يجذب الأرواح ... الخ . فالمقصد الحقيقى عنده : هو الاهتمام بالقرآن
وهو مقصد جليل ولا شك ... يحتاج المسلمون الى تحقيقه

لكن ليس بدعاً من رأى أن ننظر في هذا المقصد لنقول : انه ليس الغرض الأول
من التفسير ؛ وليس أول ما يعنى به ويقصد اليه ؛ بل ان قبل ذلك كله مقصداً أسبق ؛
وغرضاً أبعد ؛ تنشعب عنه الأغراض المختلفة ؛ وتقوم عليه المقاصد المتعددة ؛ ولا بد
من الوقوف به قبل تحقيق أى مقصد آخر ؛ سواء أكان ذلك المقصد الآخر ؛ علمياً أم
عملياً ؛ دينياً أم دنيوياً ... وذلك المقصد الاسبق والغرض الأبعد هو النظر في القرآن
من حيث هو كتاب العربية الأكبر ، وأثرها الأدبى الأعظم ؛ فهو الكتاب الذى
أخلد العربية ، وحى حكيماؤها وخلد معها ، قصار عمرها ؛ وزينة تراثها ؛ وتلك صفة

للقرآن يعرفها العربى مهما يختلف به الدين أو يفترق به الهوى ؛ ما دام شاعراً بعريته
مدركاً أن العروبة أصله فى الناس ؛ وجنسه بين الأجناس ؛ وسواء بعد ذلك أكان العربى
مسيحياً أو وثنياً ؛ أم كان طبيعياً دهرياً ؛ لادنياً ؛ أم كان المسلم المتخفف ؛ فانه سيعرف
بعروبه منزلة هذا الكتاب فى العربية ؛ ومكانته فى اللغة ؛ دون أن يقوم ذلك على شيء
من الإيمان ؛ بصفة دينية للكتاب أو تصديق خاص بعقيدة فيه .. وليس هذا شأن
العرب فحسب ؛ بل ان الشعوب التى ليست عربية الدم أصلاً ؛ ولكن وصلها التاريخ
وسير الحياة بهذه العروبة ، فارتضت الاسلام ديناً ؛ أو خالطت العرب فساطت دماءها
بدمائهم ؛ ثم اتخذت العربية أصلاً من أصول حياتها الأدبية .. حتى ربطتها بالعربية
هذه الاواصر الوثقى ؛ الى أن صارت العربية عنصراً أساسياً ؛ وجانباً جوهرياً من
شخصيتها اللغوية الفنية ؛ قد صار لكتاب العربية الاثـم وقراءتها الاكرم مكانه بين
ما تعنى به ؛ من دراسة أدبية وآثار فنية قولية ؛ فالزمها كل أولئك تناول هذا
الكتاب بدراسة أدبية ؛ تفهم بها أصول ما ورثت من تلك العروبة إن كانت عربية
النـجار ؛ أو كانت قد اتصلت بتلك العروبة اتصالاً حيويّاً قوياً ؛ دفع شخصيتها ؛ وسير
وجودها ، ووجه حياتها .. فالعربى الفصح ، أو من ربطته بالعربية تلك الروابط ؛
يتراء هذا الكتاب الجليل ، ويدرسه درساً أدبياً ، كما تدرس الأمم المختلفة عيون
آداب اللغات المختلفة . وتلك الدراسة الأدبية لا أثر عظيم كهذا القرآن هى ما يجب أن
يقوم به الدارسون أولاً وفاء بحنى هذا الكتاب ؛ ولو لم يقصدوا الاهتداء به أو
الانتفاع بما حوى وشمل ؛ بل هى ما يجب أن يقوم به الدارسون أولاً ولو لم تنطو
صدورهم على عقبة مافيه أو انطوت على نقيض ما يردده المسلمون الذين يعدونه كتابهم
المقدس ؛ فالقرآن كتاب الفن العربى الاقدس ؛ سواء أنظر اليه الناظر على أنه كذلك
فى الدين أم لا

وهذا الدرس الأدبى للقرآن فى ذلك المستوى الفنى ، دون نظر إلى أى اعتبار ؛
دينى ، هو ما نعتده وتعتده معنا الأمم العربية أصلاً والعربية اختلاطاً ؛ مقصداً أول

وغرضاً أبعد يجب أن يسبق كل غرض ويتقدم كل مقصد ... ثم لكل ذي غرض أو صاحب مقصد بعد الوفاء بهذا الدرس الأدبي أن يعتمد إلى ذلك الكتاب ؛ فيأخذ منه ما يشاء ؛ ويقتبس منه ما يريد ؛ ويرجع إليه فيما أحب من تشريع ؛ أو اعتقاد ؛ أو أخلاق ؛ أو إصلاح اجتماعي ، أو غير ذلك ... وليس شيء من هذه الأغراض الثانوية يتحقق على وجهه إلا حين يعتمد على تلك الدراسة الأدبية لكتاب العربية الأوضح دراسة صحيحة كاملة مفهومة له ، وهذه الدراسة هي ما نسميه اليوم تفسيراً . لأنه لا يمكن بيان غرض القرآن ولا فهم معناه إلا بها

فجمل القول : أن التفسير اليوم — فيما أقصمه — هو : الدراسة الأدبية ، الصحيحة المنهج ، الكاملة المناحي ، المتسقة التوزيع . والمقصد الأول للتفسير اليوم أدبي محض صرف ، غير متأثر بأي اعتبار ؛ وراء ذلك ... وعليه يتوقف تحقق كل غرض آخر يقصد إليه . . هذه هي نظرتنا إلى التفسير اليوم وهذا غرضنا منه ؛ وعلى هذا الأساس تقدم لبيان طريقة تناوله ومنهج درسه .

٢ - أثر ترتيب القرآنة في تفسيره

ونظريين يدي الحطة في مسألة الترتيب لنبنى عليها الرأي في كيفية تناول التفسير ؛ وهل تتبع فيه الحطة التي سادت حتى اليوم — كما تقدم — فندرسه على ترتيب سورته وآية في السور ؛ أو على غير هذا من ترتيب ؟

والقرآن — كما هو المعروف — لم يرتب على الموضوعات والمسائل ؛ فيفرد كل شيء منها بباب أو فصل ؛ يجمع ما ورد فيه عن هذا الموضوع أن تلك المسألة ؛ فليس على ترتيب كتب العقائد مع ما فيه من أصول العقيدة ، وليس على ترتيب كتب التشريع مع ما فيه من أصول التشريع ، ولا هو كذلك على نسق كتب الاخلاق أو التاريخ ولا القصص ، ولا غير ذلك ... بل ليس على ترتيب بعض كتب أفردت أحداث الحياة بأسفار عنون كل سفر منها بحادث ، أو حين

حياة فرد خست كل حين منها بقسم كما لم يرتب على شيء من تاريخ ظهور آياته . . إنما جرى القرآن على غير هذا كله ، فمرض لكثير من الموضوعات ، ولم يجمع منها واحداً بعينه . فالتقى أوله ، وآخره ، ويعثر به في مكان معين . . وإنما نثر ذلك كله نثراً ، وفرقه تفريقاً ، فالحكم التشريعي في أكثر من موضع ، والأصل الاعتقادي قد عرض له غير مرة ، والقصة قد وزعت مناظرها ومشاهدها في جملة أماكن ، وهكذا تقرأ في السورة الواحدة فنوناً من القول ، وتمر بألوان من الأغراض المختلفة ، تعرض لها سورة أخرى ، فيتكامل الغرضان ، وتتم الزكرة بتبعضها في مواطن متعددة ، وذلك لحكمة ومرمى يبين في غير هذا المكان من الدراسة القرآنية التي تعرض للكلام في الترتيب

ولأننا ننظر إلى ما لهذا الواقع من أثر في طريقة تناول القرآن بالتفسير ، وتبعية لفهم معانيه وأغراضه ، فيبدو لناظر أن تفسيره سوراً وأجزاء لا يمكن من الفهم الدقيق والإدراك الصحيح ، لمعانيه وأغراضه ، إلا إن وقف المفسر عند الموضوع ليستكمل في القرآن ويستقصيه إحصاء ، فيرد أوله إلى آخره ، ويفهم للاحقه بسابقه . . فالناظر في سورة البقرة مثلاً يجد من الحديث عن المؤمنين وحالهم ما أحسب أنه يفهم الفهم الصحيح ، إذا ما قورن بما في سورة المؤمنين ، من الجزء الثامن عشر — ثم هو واحد في هذه البقرة عن المنافقين وحالهم ما لا يفهم على وجهه إلا مع سورة المنافقون ، في الجزء الثامن والعشرين . . وقصة آدم في البقرة ، إنما تفسر مع ما ورد عنها في سور الأعراف ، والحجر والكهف وغيرها

وأنت — أرشدك الله — مقدر أن الذي يفهم جملة نصوص خاصة بموضوع واحد ، إنما يصل إلى صحيح معناها ودقيقه ، بمعرفة سابقها ولاحقها ، ومتقدمها ومتأخرها ؛ إذا ما كان الزمن قد تباعد بين تلك النصوص ؛ وبخاصة مثل هذا التباعد الزمني ؛ الذي بين آتى القرآن ؛ فقد طال سنين وسنين . . ثم هذا المتفهم محتاج إلى أهله الملائمات والمناسبات والأسباب التي أحاطت بما يفهمه من النصوص ؛ إذ هي

أضواء لا بد منها لاستجلاء المعنى .. وترتيب القرآن لم يرع شيئاً من تقدم الزمن وتأخره ؛ فسكية يتخلل مدنية ، ويحيط به ؛ ومدنية يتخلل مكية ويحيط به ؛ وهكذا ترى من النظر في ترتيب القرآن على سورة — أى ترتيب كان في المصاحف المختلفة — ما لا يساير حاجات مفسره المتفهم له ؛ بل يقضى ما كان من أمر الترتيب ؛ بالنظر الجديد والترتيب الخاص لآى الموضوع الواحد ؛ بحيث يكشف هذا الترتيب لنا عن تلك النواحي ؛ التي عرفت أن المفسر المتفهم مضطر الى مراعاتها وتقديرها ؛ توصلاً الى الفهم الصحيح ؛ والمعنى الدقيق .

لجملة القول ؛ أن ترتيب القرآن في المصحف قد ترك وحدة الموضوع لم يلتزمها مطلقاً ؛ وقد ترك الترتيب الزمني لظهور الآيات لم يحتفظ به أبداً ؛ وقد فرق الحديث عن الشيء الواحد والموضوع الواحد في سياقات متعددة ؛ ومقامات مختلفة ؛ ظهرت في ظروف مختلفة ؛ وذلك كله يقضى في وضوح بأن يفسر القرآن موضوعاً ؛ موضوعاً ؛ وأن يجمع آية الخاصة بالموضوع الواحد ؛ جمعاً إحصائياً مستقصياً ؛ ويعرف ترتيبها الزمني ؛ ومناسباتها وملابساتها الحافة بها ؛ ثم ينظر فيها بعد ذلك لتفسير وتفهم فيكون ذلك التفسير أهدي الى المعنى ؛ وأوثق في تحديده ... وليس تفسير القرآن سورة سورة ~~إلا~~ ^{بل} عرضاً مغرقاً لموضوعات مختلفة تنتظمها السورة الواحدة ؛ ثم يعود المفسر بعد ذلك في السورة الأخرى الى مثل هذه الموضوعات أنفسها ... فان عجل النظرة الجامعة الى هذه الموضوعات في القرآن كله حيناً عرضت له في أول سورة ؛ فقد آل به الامر الى تفسير الموضوعات ؛ وكانت وقفاته الطوال المتباعدة عند كل موضوع تركا لتفسير السورة وإخلاصاً به ؛ وإن تمرض للموضوع الواحد مراراً كلما عرض في السور المختلفة فقد أخل بوحدة الموضوع حين ترك الإلمام الجامع به في مقام متصل

فصواب الرأي — فيما يبدو — أن يفسر القرآن موضوعاً موضوعاً ؛ لا أن يفسر على ترتيبه في المصحف الكريم سوراً أو قطعاً ... ثم إن كانت للتفسير نظرة في وحدة السورة وتناسب آياتها ؛ وإطراد سياقها فامل ذلك إنما يكون بعد التفسير المستوفى للموضوعات المختلفة فيها .

٣ - المنهج الادبي في التفسير :

واذا ما كان وجه الرأى أن التفسير الادبي لكتاب العربية الاكبر ؛ هو اول ما يجب أن يحاوله من لهم بالعربية صلة لغوية ادبية سواء أكانوا عرباً أم غير عرب .. واذا ما كان وجه الرأى أن هذا التفسير الادبي ينبغي أن يتناول القرآن موضوعاً موضوعاً ، لا قطعة قطعة ؛ فعلى هذا الاساس يكون منهج التفسير الادبي إذن صنفين من الدراسة ؛ كما هي الخطة المثلثية في درس النص الادبي (١) وهذان الصنفان هما :

١ - دراسة حول القرآن . ب - دراسة في القرآن .

فأما دراسة ماحول القراءة :

فهي دراسة خاصة قريبة الى القرآن ، ومنها دراسة عامة بعيدة ، فيما يبدو من ظاهر الرأى ؛ ولكنها في تقدير المنهج الادبي لازمة لفهم القرآن فهماً سليماً دقيقاً . والدراسة الخاصة هي ما لا بد لمعرفته ، بما حول كتاب جليل كهذا الكتاب : ظهر في نحو عشرين عاماً أو كذا وعشرين عاماً ، ثم ظل مفرقاً سنين حتى جمع في أدوار مختلفة وأحوال مختلفة ، وكان جمعه وكتابته عملاً سائر الزمن طويلاً ، وناله من ذلك ما ناله .. ثم هناك قراءته ، ومسايرة هذه القراءة للتطور اللغوي الذي تعرضت له اللغة العربية ، بفعل النهضة الجادة التي أثارتهما الدعوة الإسلامية والدولة الإسلامية ، فقد كانت هذه القراءات عملاً ذا أثر واضح في حياة الكتاب وفهمه . وتلك الابحاث من نزول ، وجمع ، وقراءة ، وما إليها هي التي عرفت اصطلاحاً ، منذ حوالى القرن

(١) بيان هذه الخطة ، وتصحيح الوضع فيها مما انتظمت دراسات كاتب هذه المادة ؛ في « الأدب المصري » بكلية الآداب ، من جامعة فؤاد الأول « مخطوطة »

السادس الهجرى باسم علوم القرآن (١) بعد ما تناولها المفسرون المختلفون قبل ذلك بالبحث المجمل، والبيان المتفاوت في الاستيفاء، حسب عناية المفسر واهتمامه؛ ومثل تلك الابحاث جد لازمة، في نظر دراسي الآثار الادبية ولا بد منها لفهم النصوص المدروسة والاتصال بها اتصالاً مجدياً... بل كان لزوم هذه الابحاث لفهم القرآن مما شعر به القدماء أنفسهم، حتى قال السيوطي في مقدمة كتابه «الاتقان في علوم القرآن» «وقد جعلته مقدمة للتفسير الكبير الذي شرعت» فيه وسميته بمجمع البحرين، ومطلع البدرين، «الجامع لتحرير الرواية، وتقرير الدراية، ومن الله» «استمد التوفيق والهداية» (٢). وكان أكثر المفسرين يلهون في مقدمة تفاسيرهم بشيء من القول في النزول والجمع، والقراءات... وقد أفرد ماحول القرآن من تلك الموضوعات حديثاً بالعناية، «تأليف» «مارسون هذه الابحاث من الغربيين». وكان أجل من كتب في ذلك منهم الألماني نولدكه T-Nöldeke صاحب كتاب تاريخ القرآن *Geschichte des Qurans*؛ الذي اشترك في تحقيقه وإكمال طبعته الثانية نفر من علماء الألمان مثل شفاليم وزيمرن وبرجستراسر. وقد جاهد أحد شباننا من خريجي كلية الآداب فترجم الكتاب بمعونة من في الكلية من أساتذته الألمان وعار في لغتهم؛ لكن حالت عوائق تافهة دون طبع الكتاب، مع أن أبحاث هؤلاء المحدثين قد أفاضت على تلك الموضوعات ألواناً من العناية العلمية، إن لم تخل من الاتهام فانها لن تخلو من روح النقد والتمحيص التي لا بد منها في تناول هذه الابحاث.. وهي دراسات ضرورية لتناول التفسير كما أشرنا، حتى ما ينبغي مطلقاً أن يتقدم لدرس التفسير من لم يثقل حظه من تلك الدراسة القريبة الخاصة حول القرآن؛ ليستطيع فهمه فهماً أدبياً صحيحاً مسترشداً بتلك الملاحظات الهامة في فهم القرآن.

وأما ما حول القرآن: من دراسة عامة، فهو ما يتصل بالبيئة المادية والمعنوية

(١) محاضرات علوم القرآن لكتاب هذه المادة في كلية الآداب «مخطوطة»

(٢) الاتقان ج ١ : ٧

التي ظهر فيها القرآن وعاش، وفيها جمع وكتب وقرئ وحفظه وخاطب أهل أول من خاطب، وإليهم ألقى رسالته لينهضوا بأدائها، وإبلاغها شعوب الدنيا. فروع القرآن عربية، ومزاجه عربي، وأسلوبه عربي، وقرآنا عربياً غير ذي عوج،... والنفاذ إلى مقاصده إنما يقوم على التمثيل الكامل، والاستشفاف التام لهذه الروح العربية، وذلك المزاج العربي، والذوق العربي (١) ومن هنا لزمّت المعرفة الكاملة لهذه البيئة العربية المادية: أرضها بجبالها وحرارها وصحاريها وقيعانها، وسماؤها بسحبها ونجومها وأنوائها، وجوهاً بحره وبرده وعواصفه وأنسامه، وطيعتها بجديها وخصبها ولحولها أو ثنائها، ونباتها وشجرها... الخ. فكل ما يتصل بتلك الحياة المادية العربية، وسائل ضرورية لفهم هذا القرآن العربي المبين... مع هذا ما يتصل بالبيئة المعنوية يمكن استيعابها هذه الكاملة. فمن حيث رجليه معروف ومن حيث رأسه غير معروف. وحكومة في أي درجة كانت وعقيدة بأي لون تولدت، وفنون مهما تنوع، وأعمال مهما تختلف وتشعب، فكل ما تقوم به الحياة الانسانية لهذه العروبة، وسائل ضرورية كذلك لفهم هذا القرآن العربي المبين... وإذا جهدت الدراسة الأدبية في أن تعرف عن تلك العربية والعروبة أكثر وأعمق وأدق ما يعرف تبتغى بذلك درس أدبها درساً صحيحاً فإن هذا القرآن رأس هذا الأدب، وقلبه الخافق، وأن يدرس درساً أدبياً صادقاً، يفي بحاجة المتعرض لتفسيره إلا بعد أن تستكمل كل وسائل تلك المعرفة للبيئة العربية مادية ومعنوية. أما مادماً نقرأ التشبيه العربي القرآني، أو التمثيل العربي القرآني، فإذا مادته الاضواء العربية، والظواهر الجوهرية العربية والحى أو الجماد المشهود في بلاد العرب لا نعرف عنه شيئاً وادس عندنا عنه صورة خاصة، فما يحق لنا مع هذا أن نقول إننا نفسر هذا القرآن أو نمد لفهمه فهماً أدبياً، يهيء للانتفاع به في

(١) إن للقرآن معاني ومرامي إنسانية اجتماعية بعيدة الهدف، أبدية العمر، ليسكن ذلك كله لما جاء الانسانية في نوبه العربي وبذلك التعبير العربي؛ والتمثل التام لهذه العروبة هو السبيل المتينة لفهم ذلك كله والوصول إليه

نواحى أخرى وما دمننا تذكر الحجر ، والاحقاف ، والأيكة ، ومدن ، ومواطن
ثمود ومنازل عاد ، ونحن لانعرف عن هذه الاماكن الا تلك الاشارات الشاردة ، فما
ينبغي أن نقول اننا فهمنا وصف القرآن لها ولاهلها ، أو اننا أدركنا مراد القرآن
من الحديث عنها وعنهم ، ثم لن تكون العبرة بهذا الحديث جلية ولا الحكمة ولا
الهداية المرجوة مفيدة مؤثرة !!

ولعله ليس بالكثير مطلقاً أن نطلب مثل تلك الدراسات المفصلة لبيئة القرآن
الذى هو أحدث الكتب السماوية عهداً ، ولغته التى بها نزل لانزال لغة حية تتكلمها
مئات الملايين ، وأدبها هو أدب غير واحدة من الامم ، تدعى لنفسها حق الحياة ، ثم
هى أصل كبير للهجات ولغات تقوم دراستها الصحيحة على دراسة هذه العربية . . . ليس
بالكثير فى شيء أن نطلب هذه الدراسة لبيئة القرآن وهذه حالته لان الكتب الدينية
الآخرى أقدم من القرآن بالقرون المتطاولة وبيئاتها قد عفت معالمها ، ولغاتها قد
تخلت عنها اذ خرجت من الحياة ، ولكننا نجد ما فى هذه الكتب الدينية جميعها من حى
وجماد ، وحادثه ، وعلم ، قد أفرد بالدراسة ، ووضعت له الكتب المطولة والمعاجم
المستوفاة حتى ما يفوت شيء منها من يبتغى معرفته ، وهذا كله الى جانب الدراسات
اللغوية والادبية ، والدينية ، والقانونية ، والاجتماعية العميقة المقارنة التى أصابتها
تلك الكتب ، ولا أتحدث عن الترجمات والنشرات ، فذلك نواح أخرى ليست الآن
بموضع حديثنا ، ولكن بها تعظم المأثمة فى هذا التقصير الدراسى لكتاب هو أجل
وأقدم ، وأوثق ما عرفت العربية من آثارها الادبية !

تلك المأثمة بما حول القرآن من دراسة وهى فى جملتها ترجع : إما إلى تحقيق النص
وضبطه وبيان تاريخ حياته . . . وإما التعريف بالبيئة التى فيها ظهر ، وعنها تحدث ،
وبين معانيها ومعانيها تقلب . . . وبعد استيفاء ذلك يكون التقدم إلى :

دراسة القرآن نفسه

وهى تبدأ بالنظر فى المفردات ، والمتأدب يجب أن يقدر عند ذلك ، تدرج دلالة

الألفاظ ، وتأثرها في هذا التدرج يتفاوت ما بين الأجيال وبفعل الظواهر النفسية والاجتماعية ، وعوامل حضارة الأمة ؛ وما إلى ذلك مما تعرضت له ألفاظ العربية ؛ في تلك الحركة الجياشة المتوثبة التي تمت بها الدولة الإسلامية ، والنهضة الدينية والسياسية والثقافية ؛ التي خلفت هذا الميراث الكبير من الحضارة . . . وقد تداولت هذه اللغة العربية في تلك النهضة أفواه أمم مختلفة الألوان والدماء والماضي والحاضر ؛ فتهأت من كل ذلك خطوات تدرجية فسيحة متباعدة في حياة ألفاظ اللغة العربية ، حتى أصبح من الخطأ البين أن يعتمد متأدب إلى فهم ألفاظ هذا النص القرآني الأدبي الجليل ، فيما لا يقوم على تقدير تام لهذا التدرج والتغير ، الذي من حياة الألفاظ ودلالاتها ، وعلى التنبيه إلى أنه إنما يريد ليفهم هذه الألفاظ في الوقت التي ظهرت فيه وتليت أول ما تليت على من حول تاليها الأول عليه السلام (١) - وهذا هو أحد الاعتبارات الجوهرية التي تقف في وجه التفسير العلى للقرآن على ما أشرنا إليه من قبل -

وإذا كان هو الأصل الأول في فهم دلالة ألفاظ القرآن ، فمن لنا به مع أن معاجنا لا تسعف عليه ولا تعين . فأكبر ما نملكه منها وهو لسان العرب ، لابن منظور المصري ، قد كتب على طريقة المقص والغراء ، كما يقول المصريون ، فتجاوزت فيه نصوص تباعدت عصور أصحابها ، فابن دريد في أوائل القرن الرابع الهجري (٨٣١ هـ) ، يجاور بن الأثير في أوائل القرن السابع الهجري (١٠٦٦ هـ) - فهاج لغويات الأول دينيات الثاني . . والقاموس المحيط كما ذكره عصارات غير بمنزلة لثقافات متغايرة متباينة ، من فلسفية عقلية إلى طلبية عملية ، فأدبية لغوية ؛ فدينية اعتقادية أو غيرها . . . معاجنا لا تسعف على شيء من تحقيق هذا الأصل الثاني . فـ

(١) لا ينكر أن خلود هذا الكتاب ورياضته الدائمة للحياة مع صلته الوثني بها . كل ذلك يهيء لفهم معاني متجددة أو نامية . لكننا مع عدم إنكار هذا القدر نرى أنه لا ينبغي أن تنسب إلى القرآن من هذه المعاني إلا ما كانت طريق فهمه الحس اللغوي للعربية ، وسبيل الانتقال إليه هو دلالة اللفظة الأولى في عصر نزول القرآن . . . ويان هذا والتمثيل له مما لا يتسع له المقام هنا

تدرج الألفاظ .. فليس أمام مفسر القرآن حين يدتغى المعنى الأول لألفاظه إلا أن يقوم بعمل في ذلك ، مهما يكن مؤقتاً وقاصراً فانه ، هو كل ما يمكن اليوم ، والى أن تملك قاموساً اشتقاقياً تدرج فيه دلالات الألفاظ ، وتمايز فيه المعاني اللغوية على ترتيبها ، عن المعاني الاصطلاحية على ظهورها .. فلا معدى للمفسر من النظر في المادة اللغوية للفظ الذى يريد تفسيره ، لينحى فيها المعاني اللغوية عن غيرها ؛ ثم ينظر فى تدرج المعاني اللغوية البادة نظرة ترتبها على الظن الغالب ، فتقدم الاسبق الاقدم منها على السابق ؛ حتى يطمئن .. ما استطاع .. إلى شئ فى ذلك ينتهى منه الى ترجيح معنى لغوى للكلمة ، كان هو المعروف حين سمعها العرب فى آى الكتاب .. والمفسر فى هذا التمييز والنظر لم .. ما أمكن .. بمحدث الدراسة فى أنساب اللغات وصلة ما بينها ، ليطمئن كذلك الى أن الكلمة عريضة أصيلة ، أو هى دخيلة ؛ وإن كانت فما يشها ؟ ~~بمعناها الأولى~~ ؟ .. ثم هو محاذر كذلك من اندفاع معاجنا فى رد الكلمات الى أصل عربى يشابهها فى اللفظ ، مع التكلف فى الاشتقاق والربط ..

وإذا ما فرغ من البحث فى معنى اللفظة اللغوى ، انتقل بعده إلى معناها الاستعمالى فى القرآن ~~يتبع وروحها فيه كله~~ ، لينظر فى ذلك ، فيخرج منه برأى عن استعمالها : هل كانت له وحدة اطردت فى عصور القرآن المختلفة ومناسباته المتغيرة ؟ وإن لم يكن الأمر كذلك ، فما معانيها المتعددة التى استعملها فيها القرآن ؟ وبذا يهتدى بمعناها أو معانيها اللغوية الى معناها أو معانيها الاستعمالية فى القرآن ؛ وهو بما ينتهى اليه من كل أولئك يفسرها مطمئناً فى موضعها من الآية التى جاءت فيها .

وقد حاول الراغب الأصفهاني منذ قرابة ألف عام ، ان يعطينا مفردات القرآن فى قاموس خاص بها . وعانى فيها شبيهاً بما وصفنا او بشئ من اصل فكرته : ولكنه لم يتم التعقب اللغوى ، ولم يستوف التتبع القرآنى ، وفاته مع ذلك كله فرق ما بين عصره وعصرنا فى دراسة اللغات وصلاتها ؛ إلا أنه فى كل حال نواة تنجل من بعده ، وبخاصة أهل هذا العصر الطموح ، فيؤلمهم ألا يملكوا إلا هذا القاموس القرآنى الناقص

بل البدائي . . وبالنزاع هذا المنهج الأدبي يرجى كمال هذا القاموس . وقواميس أخرى تتطلبها حياة القرآن ، كتاب العربية الأعظم .

ثم بعد المتردات يكون نظر المفسر الأدبي في المركبات : وهو في ذلك - ولا مرية - مستعين بالعلوم الأدبية من نحو وبلاغة . الخ ولكن لا على أن الصنعة النحوية عمل مقصود لذاته ، ولا لون يلون التفسير كما كان الحال قديماً . . بل على أنها أداة من أدوات بيان المعنى وتحديد به ، والنظر في اتساق معاني القراءات المختلفة للآيات الواحدة ، والتناء الاستعمالات المتماثلة في القرآن كله . . ثم على أن النظرة البلاغية في هذه المركبات ليست هي تلك النظرة الوصفية التي تعنى بتطبيق اصطلاح بلاغي بعينه ، وترجيح أن ما في الآية منه هو كذا لا كذا ، أو إدراج الآية في قسم من الأقسام البلاغية وفق قسم آخر . . كلا ، بل على أن النظرة البلاغية هي النظرة الأدبية الفنية التي تشمل الجمال القول في الأسلوب القرآني ، وتستبين معارف هذا الجمال ، وتستجلي قسماؤه ، في ذوق بارع قد استكشف خصائص التراكيب العربية ، منضماً إلى ذلك التأملات العميقة في التراكيب والأساليب القرآنية لمعرفة مزاياها الخاصة بها بين آثار العربية ، بل لمعرفة فنون القول القرآني وموضوعاته . فنا فنا ، وموضوعاً موضوعاً ، معرفة تبين خصائص القرآن في كل فن منها ومزاياه التي تجلو جماله .

ولئن كان مثل هذا مما يطلب أو يوصف في قليل من الجمل أو الأسطر ، فإن تحقيقه ليس بهذه السهولة والقرب ، وإنما يقوم على اصلاح أدبي بلاغي أحسب أن الحياة الأدبية اليوم تحاول به ، وهي بالغة منه إن شاء الله مبلغاً حسناً ، ومستفيدة به في التفسير الأدبي للقرآن ، كما تستفيد هذه المحاولة الإصلاحية نفسها بمزاوتها للتفسير القرآني ، وإذا أوفى بنا القول على هذا الإصلاح الأدبي فانا نشر إلى ما تنبئ مراعاته من :

التفسير النفسى : لأن ما استقر من تقدير صلة البلاغة بعلم النفس (١) قد مهد السبيل الى القول بالإعجاز النفسى للقرآن ؛ كما كشف عن وجه الحاجة إلى تفسير نفسانى للقرآن يقوم على الإحاطة المستطاعة ؛ بما عرف العلم من أسرار حركات النفس البشرية فى الميادين التى تناولتها دعاوة القرآن الدينية ؛ وجدله الاعتقادى ؛ ورياضته للوجدانات والقلوب ؛ واستلله لقديم ما اطمأنت اليه ؛ وتوارثته عن الاسلاف والإجيال ؛ وتزيينها بما دعا اليه من إيمان ؛ ينقض مبرم هذا القديم ويهدم أصوله .. وكيف تطف القرآن لذلك كله ، وماذا استخدم من حقائق نفسية ؛ فى هذه المطالب الوجدانية ؛ والمراعى القلبية ؟ وماذا أجدت رعاية ذلك كله ؛ فى انجاح الدعوة ؛ وإعلاء الكلمة ؟ . فالتفسير النفسى ؛ يقوم على أساس وطيد من صلة الفن القولى بالنفس الإنسانية ؛ وأن الفنون على اختلافها - ومن بينها الادب - ليست الا ترجمة لما تجده النفس ... وقد ألمعنا بذلك فى مكانه من الدراسة البلاغية الفنية ... ولا نقول الآن أكثر من أن اللمحة النفسية فى المعنى القرآنى ، ربما تكون أحسن لخلاف بعيد النور كثير الشعب بين المفسرين ؛ قد تأثروا له البراهين النظرية والاقيسة المنطقية ؛ وتلاقوا فيه بصنوف الاعاريب ؛ ومعقد الصناعة النحوية البعيدة عن روح الفن ؛ أو بالمحاولات البيانية الجافة ؛ الى النظرات السوفسطائية المسفة وانظر على سبيل المثال تفسير الآيات ١٩٣ - ١٩٥ من سورة الشعراء فى الفخر الرازى ٦ : ٥٤١ - ٥٤٣ ط بولاق - وقابله بتفسير الزمخشري لهذه الآيات - كشف ٢ : ١٣٢ ط بولاق - تر الفرق بين الصنيعين وكيف كانت نظرة الزمخشري النفسية فيصلا حاسما فى الموضوع .. فالملاحظة النفسية هنا تعلل نسج الآية وصياغتها ؛ وتعرف بجو الآية ؛ وعالمها ترفع المعنى الذى يفهم منها الى أرق باهر السناء . وبدون هذه الملاحظة يرتد المعنى بضئلا ساذجا ؛ لاتكاد النفس تطمئن اليه ؛ ولا هو خليق بأن يكون من مقاصد القرآن .

(١) بحث « البلاغة وعلم النفس » - لكتاب هذا المقال نرى فى الجزء الثانى من (مجلة الراية) لجامعة كلية الآداب سنة ١٩٣٩ .

والحديث عن التفسير النفسى يذكرنا بمعرض له "استاذ الإمام - روح الله - روحه من صلة بين :

التفسير وعلم الاجتماع : فقد ذكر (١) " أن علم أحوال البشر مما لا يتم التفسير الا به وأنه لا بد للنظر فى الكتاب من الناظر فى أحوال البشر فى أطوارهم وأدوارهم ومناشئهم اختلاف أحوالهم من قوة وضعف وعز وذل وعلم وجهل وإيمان وكفر . . . وهذا هو ما جعلنا نفهم من قوله أنه يريد علم الاجتماع ؛ وإن لم يسمه . . . ولكنه عقب على ذلك بقوله . . . ومن العلم بأحوال العالم الكبير ، علوية وسفلية ؛ ويحتاج فى هذا الى فنون كثيرة ، من أهمها التاريخ بأنواعه . . . وعلى كل حال فنحن انما عنينا بما يقوم به الفهم الأدبى للقرآن ؛ وهو الفهم الذى يتقدم كل استفادة منه . . . ثم تتلوه بعد ذلك المطالب الأخرى من هداية الخلق ؛ أو إصلاح حالهم أو التبشير لهم . . . فكل هذا يجب أن يقوم على أساس وطيد من الدرس الأدبى الذى أسلفنا وصفه العام ؛ فيتصل بالخبرة النفسية كما ذكرنا ؛ وقد تتصل المطالب الأخرى بعد ذلك بعلم الاجتماع أو غيره

وبعد فقد وصفت الذى وصفته من منهج التفسير الأدبى ومطالبه الجليلة ، وأنا ذاكر مالا أنساه أبداً كلما شرحت المنهج الدقيق لدراسة أدبية أو غيرها ؛ فأقول للمستكثرين : مهما يكن لهذه المطالب من أثر يثقل خيالي وأنا ويؤخر أثمار دراستنا ، ويشعرتنا بالنقص ؛ ويعود علينا باللائمة فإن هذه هى الحقيقة ؛ وهذا هو الواجب ؛ وأولى لنا أن نؤثر تقرير هذه الحقيقة على أن نكذب على أنفسنا وعلى الأجيال . ونزعم الكفاية الكاملة والقدرة الموفورة . وإن لم يكن لنا من الكمال إلا الشعور بالنقص . فذلك أجمل بنا من التزيد الزائف . . . وليس الذى نبغيه من هذا المنهج مستحيلاً ولا

بعيد التحقق ؛ فقد شعر أسلافنا بجملة ؛ وقاموا ببعضه للقرآن ؛ ثم قام المحدثون به كله ؛ لكتبهم الادبية ؛ والدينية وان نكرن نحن بين هؤلاء وأولئك الضائعين العاجزين !!

وأخيراً .. هذا المقال - في أكثره - إيجاز مركز ؛ واجمال لائح ؛ يغرى ذوى الشأن في التفسير بآفاق فسيحة من الدرس والبحث . وما على اذالم يجد كل قارىء فيه حاجته ؟ !! ليس هنا مجال الاستيفاء

أمين الخولى

المراجع :

(بعد ما أشير اليه في الهوامش) أمين الخولى - :

١ - مدخل لدرس التفسير ؛ وبيان المنهج الجامعى فيه - دراسات في كلية الآداب - خط

٢ - دراسات لبعض موضوعات القرآن كقصصه - وأمثاله - وتشبيهه ... الخ في كلية الآداب - خط -

٣ - أخلاق القرآن - لومن هدى القرآن ... بضعة وخمسون حديثاً في لون من التفسير النفسى والاجتماعى مستمد من الحس اللغوى والجو الأدبى للقرآن أولاً ... طبعت منه مجلة الراديو المصرى بضع

عشرة قطعة في خلال - ١٩٤١ - ١٩٤٢

الآن (ذى الحجة سنة ١٣٦٢ - ديسمبر سنة ١٩٤٣)